ميلان كونديرا

الغرب المختطف

مكتبة

المركز الثقافي العربي

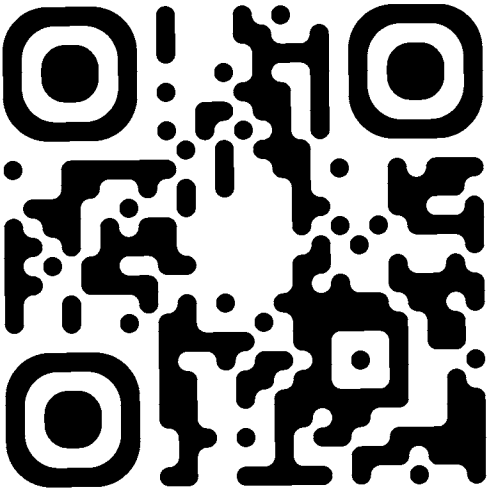

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

ميلان كونديرا

الغرب المختطف

أو مأساة أوروبا الوسطى

الكتاب

الغرب المختطف

أو مأساة أوروبا الوسطى

تأليف

ميلان كونديرا

ترجمة

عبد المجيد سباطة

الطبعة

الأولى، 2023

الإيداع القانوني:

2023MO5066

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9920-657-74-7

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 0522 305726 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

ميلان كونديرا

مكتبة
t.me/soramnqraa

الغرب المختطف
أو مأساة أوروبا الوسطى

ترجمة: عبد المجيد سباطة

المركز الثقافي العربي

هذه ترجمة عن اللغة الفرنسية لكتابَي:
Discours au Congrès des écrivains tchécoslovaques
© Milan Kundera, 1967
All rights reserved
تقديم: Jacques Rupnik
© Éditions Gallimard, 2021

Un Occident kidnappé
ou la tragédie de l'Europe centrale
© Milan Kundera, 1983
All rights reserved
تقديم: Pierre Nora
© Éditions Gallimard, 2021

إن حقوق الترجمة العربية محفوظة **للمركز الثقافي العربي**
بموجب عقد مع صاحب حقوق النشر

طُبِعت 1000 نسخة من هذه الطبعة الأولى في شهر ديسمبر 2023
1,000 copies of this first edition were printed in December 2023

يمنع منعاً باتاً تحويل العمل إلى فيلم، أو مسرحية، أو عمل تلفزيوني أو إذاعي
All adaptations of the work for film, theatre, television and radio are strictly prohibited

الأدب والأمم الصغيرة

تقديم

مكتبة
t.me/soramnqraa

هناك مؤتمرات للكُتّاب أكثر أهمية، أو أكثر ذكراً على أية حال، من مؤتمرات الحزب. توالت هذه الأخيرة في تشيكوسلوفاكيا الشيوعية وتشابهت. وكان من الصعب توقع جديد مؤتمرات الكُتّاب هذه، بل وأنذرت أحياناً بتغيرات عميقة في العلاقة بين السلطة والمجتمع.

حملت هذه المؤتمرات أيضاً خطابات مثّلت حقبة معينة، فاحتفظت إعادة قراءتها اليوم بصدى خاص. نتذكر هنا إدانة سولجنتسين للرقابة في موسكو في مايو 1967، التي ألهمت غي بِيَار لكتابة أغنية جميلة: «قال الشاعر الحقيقة، يجب إعدامه». . . لكننا لا نعرف الكثير عن الخطابات المذهلة التي أُلقيت في مؤتمر الكُتّاب ببراغ، شهراً واحداً بعد ذلك، بدءاً بخطاب ميلان كونديرا.

كان ميلان كونديرا كاتباً ناجحاً عندئذٍ، في المسرح

مع **أصحاب المفاتيح** (1962)، وفي القصة القصيرة مع مجموعة **غراميات مرحة** (1963 و1965) وفي الرواية على وجه الخصوص، مع رواية **المزحة** الصادرة عام 1967 (وقت انعقاد مؤتمر الكُتّاب)، وهي رواية استحضرت واختتمت حقبة معينة وظلت، ليس فقط بالنسبة للقراء التشيكيين، مرتبطة بربيع 1968[1]. كان كونديرا أستاذاً في مدرسة السينما (FAMU) وصار أحد الوجوه اللامعة التي مثّلت تطوراً ملحوظاً في إبداع ثقافي تميز بفرادة وتنوع منقطعَي النظير، في الأدب (هرابال، شكوريك، فاكوليك...) كما في المسرح (هافيل، توبول)، وفي الموجة السينمائية الجديدة على وجه الخصوص (فورمان، باسر، مينزل، نيميك، تشيتيلوفا...). لقد اعتَبر عقدَ الستينيات - ولأسباب وجيهة - بمثابة «عصر ذهبي» للثقافة التشيكية، التي تخلصت تدريجياً من القيود الأيديولوجية للنظام، دون الخضوع في الآن نفسه لقيود السوق. من هذا المنظور، لا يمكن اختزال ربيع براغ عام 1968[2] في بعده السياسي،

---

(1) صدرت الترجمة الفرنسية للرواية عن دار غاليمار بعد الغزو السوفيتي، في أكتوبر 1968.

(2) ربيع براغ: مرحلة في تاريخ تشيكوسلوفاكيا، عمل خلالها الحزب الشيوعي على اقتراح مجموعة من الإصلاحات تهم حرية التعبير =

ولا يمكن فهمه إلا باعتباره حصيلة العقد الذي كانت تُطبع فيه 250 ألف نسخة من أسبوعية الكُتّاب **الصحيفة الأدبية** (*Literarni noviny*)، تنفد كلها يوم صدورها؛ وهو العقد الذي سرَّع فيه تحريرُ الثقافة انهيارَ الهيكل السياسي.

حاولت السلطة القائمة، مع استشعارها للخطر، استعادة زمام السيطرة، فصار مؤتمر الكُتّاب المنعقد في يونيو 1967 مسرحاً لهذه المواجهة بين الكُتّاب والسلطة، وهو ما بدأت بواكيره في مؤتمر ليبليس لعام 1963 المخصص لفرانز كافكا، بما مثّله ذلك من دفن رمزي لـ«الواقعية الاشتراكية». فبعد أربعين عاماً، كشفت أعمال الكاتب اليهودي، ابن براغ والناطق بالألمانية، بدءاً برواية **المحاكمة**، كشفت للقراء التشيكيين عن واقعية مختلفة، ومقلقة إلى حد ما لساكن «القصر»، قائد الحزب والدولة، أنتونين نوفوتني.

شهد مؤتمر الكُتّاب عام 1967 لحظات فارقة، بدءاً بخطاب الكاتب بافيل كوهوت، الذي انتقد فيه سياسة الكتلة السوفييتية المعادية لإسرائيل في حرب الأيام الستة،

= ولامركزية الاقتصاد. بدأت في 5 يناير 1968 وانتهت في 21 أغسطس من العام نفسه مع اجتياح القوات السوفييتية للبلاد - المترجم.

ثم قرأ رسالة سولجنتسين[1] الشهيرة إلى اتحاد الكُتّاب السوفييت. كان هذا كثيراً بالنسبة لجيري هندريش، حيث غادر الوصي على العقيدة الأيديولوجية في قيادة الحزب القاعةَ، وعند مروره خلف المنصة حيث كان يجلس كونديرا وبروشازكا ولوستيج، أطلق صرخته الخالدة: «لقد خسرتم كل شيء، كل شيء على الإطلاق!». وفي اليوم التالي، حان دور لودفيك فاكوليك، مؤلف رواية **الفأس** وعضو هيئة تحرير مجلة **الصحيفة الأدبية**، والمتأثر بما قاله هندريش، لتجاوز حدود كل ما كان يُفترض أنه مقبول، منتقلاً بصراحة إلى السؤال الجوهري: مصادرة السلطة من قِبل «حفنة من الأشخاص الذين يريدون اتخاذ القرارات بشأن كل شيء»، وبالتالي مهاجمة الرقابة بل وحتى الدستور نفسه. كانت القطيعة عندئذ حتمية.

بطبيعة الحال، ستحتفظ ذاكرةُ التاريخ السياسي بالصراع الواضح الذي جرت أطواره بين الكُتّاب والسلطة، وبالهزيمة المؤقتة للأوائل صيف عام 1967، ثم انتصارهم

---

(1) ألكسندر سولجنتسين (1918-2008): روائي وكاتب مسرحي ومؤرخ سوفييتي روسي. تحدثت أشهر أعماله عن معسكرات الاتحاد السوفييتي للعمل القسري (الغولاغ). حصل على جائزة نوبل للآداب عام 1970 - المترجم.

(المؤقت أيضاً) ربيع عام 1968، فيما سيحتفظ تاريخ الأفكار على وجه الخصوص بالخطاب الافتتاحي لميلان كونديرا، فقد هاجم الرقابة إسوة بزملائه، لكنه قدّم مقاربة مختلفة لموضوع حرية الإبداع. فباعتماده منظوراً تاريخياً، تساءل كونديرا عن مصير الأمة التشيكية التي لم يكن وجودها في حد ذاته «بديهياً»، إثر تدمير النخب بعد معركة الجبل الأبيض (1620) ومرور قرنين من الجرمنة، قبل أن يعود إلى السؤال الاستفزازي الذي جرت صياغته نهاية القرن التاسع عشر على يد الكاتب هوبيرت غوردون شاور: هل كانت إعادة لغة ذات ثقافة عالية للتشيكيين أمراً يستحق بذل كل هذا الجهد؟ ألم يكن حرياً بهم الانصهار في الثقافة الألمانية الأكثر تطوراً وتأثيراً؟ تناول كونديرا السؤال بطريقة بلاغية قرناً بعد طرحه وقدّم إجابته: لا يُبرَّر ذلك إلا عبر إسهام متميز في الثقافة والقيم الأوروبية، أو بعبارة أخرى، الوصول إلى الكوني عبر الخصوصي. وبدا أن حيوية الثقافة التشيكية في الستينيات قد مثلت هذه الرغبة أو هذا الرهان. إلا أن هذا التطور الثقافي، الذي ارتبط به وجود الأمة، يعتمد الحرية شرطاً له. وبذلك أصبحت الدعوة إلى استقلالية الثقافة وحرية الفكر تحدياً للأيديولوجيين الفارضين للرقابة، ممن سماهم كونديرا

«المخربين». فكان من الواضح أن تحرير الثقافة من قبضة السلطة قد اكتسب بُعداً سياسياً.

لكن السؤال الذي طرحه كونديرا عام 1967 له أيضاً صدى معاصر مدهش، عندما توقّع بعدَه الآخر: مصير الأمم الصغيرة في «الآفاق الإدماجية الواسعة التي انفتحت خلال النصف الثاني من القرن العشرين».

«قد تؤدي عملية الإدماج إلى ابتلاع كل الأمم الصغيرة، التي لا تملك ما تدافع به عن نفسها سوى قوة ثقافتها وشخصيتها والسمات المميزة لمساهمتها»[1]. وقد يكون احتواء «الضغط غير العنيف لعملية الإدماج هذه في القرنين العشرين والحادي والعشرين» أكثر صعوبة مما كانت عليه مقاومة الجرمنة في السابق.

وهكذا، فإن طرح تساؤلات حول خصوصية وموقع الثقافة التشيكية يجد امتداده في تفكير كونديرا في مصير الأمم الصغيرة في أوروبا الوسطى، ويتوقّع جوانب من معضلاتها المستقبلية في أوروبا السائرة في طريق العولمة.

---

(1) حوار لميلان كونديرا مع أنتونين ليهم في كتاب **ثلاثة أجيال** (*Trois générations*)، وهي حوارات حول الظاهرة الثقافية التشيكوسلوفاكية، مقدَّمة بقلم جان بول سارتر، باريس، غاليمار، 1970. وقد يكون هذا الحوار الذي انعقد قبيل مؤتمر الكُتّاب لعام 1967 أفضل بورتريه ذاتي ثقافي لميلان كونديرا.

وهذا ما يربط أيضاً بين خطاب كونديرا في مؤتمر الكُتّاب لعام 1967 والمقال الذي نُشر عام 1983 في مجلة **المناظرة** (*Le Débat*) حول «الغرب المختطف أو مأساة أوروبا الوسطى».

جاك روبنيك[1]

(1) جاك روبنيك (1950): أستاذ علوم سياسية ومؤرخ فرنسي-تشيكي، متخصص في قضايا أوروبا الوسطى والشرقية - المترجم.

الأدب والأمم الصغيرة

خطاب ألقاه ميلان كونديرا ضمن فعاليات مؤتمر الكُتّاب التشيكوسلوفاكيين 1967

أصدقائي الأعزاء، لا وجود لأمة عاشت في كوكب الأرض منذ فجر التاريخ، بل إن مفهوم الأمة بحد ذاته حديث نسبياً، لكن معظم هذه الأمم تشعر بأن وجودها بديهي، هبة من الله أو من الطبيعة وُجدت منذ الأزل. للشعوب القدرة على النظر إلى ثقافتها ونظامها السياسي وحتى حدودها باعتبارها صنيعتها، ما يجعلها بالتالي مصدراً للتساؤلات أو المشاكل، فيما تنظر إلى وجودها كشعب بوصفه حقيقة مستثناة من أي تساؤل. إن التاريخ غير السعيد والمتقطع للأمة التشيكية، التي مرت عبر غرفة انتظار الموت، سمح للأخيرة بتجنب الاستسلام لهذا النوع من الأوهام المخادعة. فلم يكن وجود الأمة التشيكية

بديهياً أبداً، وهذه **اللابديهية** هي إحدى سماتها الأساسية بكل تأكيد.

تجلت هذه الظاهرة بكل وضوح مع بدايات القرن التاسع عشر، عندما حاولت حفنةٌ من المثقفين النهوضَ باللغة التشيكية أولاً، هذه اللغة شبه المنسية، ثم مع الجيل الموالي، النهوضَ بالشعب التشيكي شبه المنطفئ نفسه. كان هذا الانبعاث متعمداً، ومثل أي فعل، فقد كان قائماً على خيار بين الإيجابيات والسلبيات. وعلى الرغم من ميلهم للإيجابيات في نهاية المطاف، فإن مثقفي حركة النهضة القومية التشيكية كانوا واعين أيضاً بحجم ووزن الحجج السائرة في الاتجاه المعاكس. كانوا يعلمون - وهذا ما تحدّث عنه ماتوس كلاسيل على سبيل المثال - أن الجرمنة ستبسّط حياة التشيك، وتقدّم المزيد من الفرص لأبنائهم. وكانوا يعلمون أيضاً أن الانتماء إلى أمة أعظم يعطي وزناً أكبر لأي عمل معنوي ويوسع نطاقه، في حين أن العِلم الذي يصاغ باللغة التشيكية - وأقتبس هنا كلام كلاسيل - **يقلّص حجم الاعتراف بعملي الدؤوب**. كانوا مدركين للصعوبات التي تواجهها الشعوب الصغيرة التي - كما قال يان كولر - **لا تفكّر ولا تشعر إلّا جزئياً** ويكون مستوى تعليمها - الكلام دائماً لكولر - **متواضعاً ومتعثراً**

في الكثير من الأحيان؛ غير حيّ، بالكاد على قيد الحياة، لا ينمو أو يتبرعم، ينبت فقط، لا يزرع الأشجار، بل النباتات الشائكة فقط.

إن الإدراك الشامل لهذه الحجج وللحجج المضادة يضع سؤال «أكون أو لا أكون ولماذا؟» في صلب الوجود الحديث نفسه للأمة التشيكية. وإذا كان أبطال الصحوة الوطنية قد فضّلوا هذا الوجود، فقد مثّل ذلك رهاناً كبيراً للمستقبل، وقد وضعوا الشعب أمام واجب تبرير صواب هذا الخيار في المستقبل.

وبالاتساق مع منطق لابديهية وجود الأمة التشيكية، صفع هوبيرت غوردون شاور[1] عام 1886 وجه المجتمع التشيكي الفتي - الذي بدأ يتمرغ في صغره بالفعل - بهذا السؤال المثير للجدل: ألن تكون مساهمتنا في تقدم الإنسانية أكبر إذا قمنا بضم طاقتنا الإبداعية إلى طاقة أمة أكبر، ذات ثقافة أكثر تطوراً بكثير من الثقافة التشيكية التي ما زالت في مهدها؟ هل كانت الجهود التي بذلناها لإعادة إحياء شعبنا تستحق كل هذا العناء؟ أيمكن اعتبار القيمة الثقافية لشعبنا كبيرة بما يكفي لتبرير وجوده؟ ينضاف إلى

---

(1) هوبيرت غوردون شاور (1862-1892): فيلسوف وناقد أدبي تشيكي - المترجم.

هذا سؤالٌ آخر: هل يمكن لهذه القيمة في حد ذاتها أن تحميه مستقبلاً من خطر فقدان سيادته؟

رأت القومية التشيكية، التي اكتفت بالنمو المتعسر عوض العيش بشكل منبثق، في هذا التساؤل الذي حل محل يقينيات زائفة هجوماً على الأمة، ولهذا السبب، قررت استبعاد السيد شاور. ومع ذلك، بعد مرور خمس سنوات، قام الناقد الشاب سالدا بتصنيف شاور كواحد من أعظم شخصيات عصره، واعتبر مقاله خدمة وطنية بامتياز. لم يكن سالدا مخطئاً، فكل ما فعله شاور هو الدفع بمعضلة يدركها جميع قادة الصحوة الوطنية التشيكية إلى أقصى حدودها. كتب فرانتيسك بالاكي في هذا الصدد قائلاً: **إذا لم نرفع روح الأمة إلى مساعٍ أعلى وأنبل من تلك التي يقوم بها جيراننا، فلن نستطيع حتى ضمان وجودنا.** فيما أضاف يان نيرودا: **لا بد لنا من الارتقاء بأمتنا إلى مستوى الوعي والتعليم في العالم، ليس فقط ضماناً لهيبتها، بل ضماناً لبقائها أيضاً.**

ربط قادةُ النهضة التشيكية بقاءَ الأمة بالقيم الثقافية التي يتوجب عليها إنتاجها. وقد أرادوا قياس هذه القيم ليس وفقاً لفائدتها للأمة، بل وفقاً لمعايير تتعلق بالبشرية جمعاء، كما كان يقال وقتئذ. كانوا يطمحون إلى إدماج العالَم

وأوروبا. في هذا السياق، أرغب في التأكيد على خصوصية الأدب التشيكي، الذي صنع نموذجاً نادراً قلما وُجد مثيل له في باقي أقطار العالم: نموذج يعتبر المترجم فاعلاً أدبياً رئيسياً، إن لم يكن محورياً. ففي المجمل، كانت أعظم الشخصيات الأدبية في القرن الذي سبق معركة الجبل الأبيض[1] مترجمين: ريهور هروبي دي يليني، دانيال آدم دي فيليسلافين، يان بلاهوسلاف. وضعتْ ترجمةُ ميلتون الشهيرة التي حملت توقيع جوزيف يونغمان أسسَ اللغة التشيكية في فترة النهضة الوطنية؛ وإلى يومنا هذا، تُعتبر الترجمة الأدبية التشيكية من بين الأفضل في العالم، ويتمتع المترجم بالتقدير نفسه مثل أي شخصية أدبية أخرى. وإن السبب وراء الدور الرئيسي الذي تلعبه الترجمة الأدبية واضح: بفضل الترجمات جرى تأسيس اللغة التشيكية وتطويرها كلغة أوروبية في حد ذاتها، بما يتضمنه ذلك من دمج للمصطلحات الأوروبية. وأخيراً، لقد أسس التشيكيون أدبهم الأوروبي باللغة التشيكية عبر الترجمة الأدبية، وساهم الأدب في تكوين القراء الأوروبيين للتشيكية.

بالنسبة للأمم الأوروبية العظمى ذات التاريخ المسمى

---

(1) معركة الجبل الأبيض (8 نوفمبر 1620): إحدى أول وأهم معارك حرب الثلاثين عاماً، التي أفضت إلى نهاية الاستقلال التشيكي - المترجم.

الكلاسيكي، فإن الإطار الأوروبي الذي تعيش فيه بديهي. أما التشيك فقد فاتتهم، بعد فترات متناوبة من اليقظة والسبات، عدة مراحل مهمة من تطور الروح الأوروبية، فبالتالي كان عليهم في كل مرة تكييف أنفسهم مع إطارها الثقافي، والتناسب معه وإعادة بنائه. فما كان أي شيء بالنسبة للتشيك مكتسباً بشكل قاطع، لا لغتهم ولا انتماؤهم الأوروبي الذي يتلخص عموماً في الاحتكام الدائم إلى خيارين: إما أن يتركوا اللغة التشيكية تضعف إلى الحد الذي يحولها إلى لهجة أوروبية فحسب - ويحول الثقافة التشيكية إلى فلكلور فحسب -، أو أن يصبحوا أمة أوروبية مع كل ما يشمله ذلك.

فقط الخيار الثاني هو ما يضمن وجوداً حقيقياً، وجود غالباً ما يكون قاسياً جداً بالنسبة لشعبٍ كرّس معظم طاقته طوال القرن التاسع عشر لبناء أسسه، بدءاً من التعليم الثانوي ووصولاً إلى تأليف موسوعة. ومع ذلك، فمنذ بداية القرن العشرين وخاصة في مرحلة ما بين الحربين العالميتين، لقد شاهدنا تطوراً ثقافياً لا مثيل له على مدار التاريخ التشيكي، فطوال عقدين، كرّس عدد من العباقرة المميزين أنفسهم للإبداع، وخلال هذه الفترة القصيرة جداً، تمكنوا، ولأول مرة منذ كومنيوس، من الرفع بالثقافة

التشيكية إلى المستوى الأوروبي، مع الحفاظ على خصوصيتها في الآن ذاته.

كانت هذه الفترة اللامعة، القصيرة والمكثفة لدرجة أننا ما زلنا نشعر بالحنين إليها، أقرب إلى المراهقة منها إلى الرشد: إذ كان الأدب التشيكي في بداياته فقط، وكان غنائياً في الغالب، ولم يكن بحاجة سوى إلى فترة سلام طويلة وبلا انقطاع لمواصلة تطويره. كان كسرُ نموِّ هذه الثقافة الفتية وقتئذ، عن طريق الاحتلال أولاً ثم الستالينية ثانياً لما يقارب ربع قرن، ثم عزلها عن بقية العالم وتقليص تقاليدها الداخلية المتعددة وتحويلها إلى مجرد بروباغندا، مأساة خاطرت بإبعاد الأمة التشيكية مرة أخرى - وهذه المرة بشكل نهائي - عن الفضاء الثقافي لأوروبا. وإذا كانت الثقافة التشيكية قد التقطت أنفاسها في السنوات الأخيرة، وصارت الآن مجال النشاط الرئيسي لنجاحنا، وإذا رأت العديد من الأعمال الإبداعية المميزة النور، وإذا كانت تعيش بعض الفنون، مثل السينما التشيكية على سبيل المثال، عصرها الذهبي، فإن كل هذا يمثل الظاهرة الأكثر لفتاً للانتباه في الواقع التشيكي خلال السنوات الأخيرة.

ولكن، هل يمكن القول إن مجتمعنا الوطني على دراية بكل هذا؟ هل يدرك أنه يستطيع إعادة الاتصال بعصر

المراهقة الذي لا يُنسى لأدب ما بين الحربين، وأن هذا يمثل فرصة عظيمة له؟ هل يدرك أن مصيره مرهون بمصير ثقافته؟ أو هل انتهى بنا المطاف إلى الاعتراض على رأي قادة النهضة التشيكية القائل بأنه في غياب قيم ثقافية قوية، فإن بقاء شعب بحد ذاته أبعد من أن يكون مضموناً؟

منذ انبعاث القومية التشيكية، تغير دور الثقافة في مجتمعنا بلا شك، وما عدنا نواجه اليوم خطر التعرض للاضطهاد العرقي. ومع ذلك، أعتقد أن هذه الثقافة تخدم، بما لا يقل عن ذي قبل، سعينا لتبرير هويتنا الوطنية والحفاظ عليها. لقد انفتحت آفاق إدماجية واسعة خلال النصف الثاني من القرن العشرين. ولأول مرة، تضافرت جهود البشرية لخلق تاريخ مشترك. تتحد الكيانات الصغيرة لتشكل كيانات أكبر. يتركز التعاون الثقافي الدولي من خلال الاتحاد. أصبحت السياحة ظاهرة جماهيرية. وبالتالي، فإن دور العديد من لغات العالم الرئيسية آخذ في الازدياد، وكلما جرى تدويل الحياة، تضاءل وزن اللغات الصغرى بشكل متزايد. تحدثتُ قبل فترة مع مسرحي بلجيكي فلمنكي، واشتكى من أن لغته قد أصبحت مهددة، وأن المثقفين الفلمنكيين صاروا ثنائيي اللغة وأنهم بدأوا يفضلون اللغة الإنجليزية على لغتهم الأم لأنها تسهل

التواصل مع العلوم الدولية. ففي ظل هذه الظروف، لا يمكن للشعوب الصغيرة الدفاع عن لغتها وسيادتها إلا عبر الثقل الثقافي للغة نفسها والطابع الفريد للقيم التي تنشأ بمساعدة منها. بطبيعة الحال، فإن بيرة بيلسن تمثل قيمة أيضاً. ومع ذلك، فإنها تُشرب في كل مكان بوصفها بيلسنر أوركيل. كلا، لا يمكن لبيرة بيلسن بأي حال من الأحوال دعم مطالبة التشيك بالحفاظ على لغتهم الخاصة. في المستقبل، سيطلب منا هذا العالَم الذي لا تتوقف عجلة اندماجه، صراحة وبلا مواربة، تبرير هذا الوجود الذي اخترناه قبل 150 عاماً، وسيسألنا لماذا هذا الخيار.

من الأهمية بمكان أن يدرك المجتمع التشيكي بكامله الدور الأساسي الذي تلعبه ثقافته وأدبه. الأدب التشيكي - وهذه هي خصوصيته الأخرى - ليس أرستقراطياً إلى حد كبير. إنه أدب عام مرتبط ارتباطاً وثيقاً بجمهوره الوطني الكبير، وهو ما يمثل قوته وضعفه معاً. تكمن قوته في خلفيته الصلبة حيث يتردد صدى كلمته بقوة، أما ضعفه فيتجلى في تحرره غير الكافي، في مستوى التعليم، وأيضاً في ما يتعلق بالجانب المعنوي والمظاهر المحتملة لافتقار المجتمع التشيكي للزاد الثقافي الذي يرتبط به فعلياً. أخشى أحياناً أن يفقد تعليمنا المعاصر تلك السمة الأوروبية التي

لطالما كانت عزيزة على الخبراء اللغويين وقادة النهضة الوطنية التشيكية. يبدو أن العصور القديمة اليونانية-الرومانية والمسيحية، وهما المصدران الأساسيان للروح الأوروبية، مع ما يثيره توسعهما من توتر، قد غابا تقريباً عن وعي المثقف التشيكي الشاب؛ وهي خسارة لا تُعوض. ومع ذلك، فهناك استمرارية قوية للفكر الأوروبي نجت من كل الثورات المعنوية، وبنى هذا الفكر مفرداته ومصطلحاته وقصصه وأساطيره بحيث إنه من دون التمكن من قضاياه التي يدافع عنها، ما كان توافقُ المثقفين الأوروبيين مع بعضهم ممكناً. لقد قرأت للتو تقريراً مخيفاً عن مدى معرفة أساتذة التشيكية المستقبليين بالأدب الأوروبي، وأفضّل ألا أعرف مدى معرفتهم بتاريخ العالَم. إن هذه العقلية المحلية لا تخص فقط توجهنا الأدبي، بل هي قبل كل شيء مشكلة مرتبطة بحياة المجتمع بأسره، بتعليمه، وصحافته، إلخ.

شاهدتُ مؤخراً فيلماً بعنوان **الأقحوانات الصغيرة** (Les Petites Marguerites) يحكي قصة آنستين حقيرتين بشكل سافر، آنستين فخورتين للغاية بضيق أفقهما اللطيف، وتدمران بفرح ومرح كل ما يتجاوز آفاقهما. تبدّت لي في هذا الفيلم رمزية تكشف تخريباً واسع النطاق ذا راهنية ملتهبة. من هو المُخرِّب؟ لا، ليس هو الفلاح الأُمّي الذي

يضرم النار في بيت مالك الأرض الغني في نوبة غضب. فالمُخرِّبون الذين أقابلهم جميعهم متعلمون، وراضون عن أنفسهم، ويتمتعون بمكانة اجتماعية جيدة إلى حد ما، وليس لديهم أي استياء تجاه أي أحد على وجه الخصوص. المُخرِّب هو ضيقُ الأفق الفخور المكتفي بذاته والمستعد في أي وقت للمطالبة بحقوقه. يؤمن ضيقُ الأفق الفخور هذا بأن القدرة على تكييف العالَم مع صورته هي جزء من حقوقه غير القابلة للنقاش، وبما أن العالَم يتألف أساساً من كل ما يستعصي عليه فهمه، فهو يُكيِّف العالَم مع صورته بتدميره. وهكذا يقطع مراهقٌ رأسَ تمثال في حديقة لأن هذا التمثال يتجاوز بشكل صارخ جوهره البشري، وبما أن كل فعل من أفعال إثبات الذات يجلب الرضا للإنسان، فإنه يفعل ذلك ببهجة عارمة. إن مَن يعيشون حاضرهم بمعزل عن سياقه، ويتجاهلون الاستمرارية التاريخية ويفتقرون إلى الثقافة، قادرون على تحويل وطنهم إلى صحراء بلا تاريخ، بلا ذاكرة، بلا صدى، وخالية من كل مقومات الجمال. لا يتخذ التخريب المعاصر أشكالاً تدينها القوانين فقط. فعندما تقرر لجنة من المواطنين أو البيروقراطيين المسؤولين عن ملف ما أن أثراً ما (قلعة، كنيسة، شجرة زيزفون عمرها قرن من الزمان) عديمُ الجدوى وتتخذ قراراً بإزالته، فليس هذا

سوى شكل آخر من أشكال التخريب. لا توجد مسافة كبيرة بين التدمير القانوني وغير القانوني، كما لا توجد مسافة بين التدمير والتحريم. دعا عضو في البرلمان مؤخراً، نيابة عن مجموعة مؤلفة من 21 نائباً، إلى حظر فيلمين تشيكيين مميزين، من تلك النوعية التي يصعب فهمها، أحدهما - ويا للسخرية! - هو **الأقحوانات الصغيرة** الذي يرمز إلى التخريب. لقد هاجم الفيلمين بلا هوادة، واعترف فوراً وحرفياً بأنه لم يفهمهما. والتناقض في بيانه ظاهري فقط، إذ إن أكبر ضرر يُنسب إلى هذين العملين السينمائيين هو بالتحديد أنهما بتجاوزهما أفق منتقديهما، فقد أساءا إليهم.

في رسالة إلى هيلفيتيوس، كتب فولتير هذه الجملة الرائعة: **لا أتفق مع ما تقوله، لكنني سأقاتل حتى الموت ليكون لك الحق في أن تقول ذلك**. هذه هي صياغة المبدأ الأخلاقي الأساسي لثقافتنا الحديثة. إن من يعود بالتاريخ إلى ما قبل نشأة هذا المبدأ يتخلى عن عصر الأنوار، عائداً إلى العصور الوسطى. إن أي قمع لأي رأي، بما في ذلك القمع القاسي للآراء الخاطئة، يسير في اتجاه معاكس للحقيقة، هذه الحقيقة التي لا نجدها إلا في مواجهة آراء حرة ومتساوية. إن أي تدخّل في حرية الفكر والتعبير - كيفما كان أسلوب هذه الرقابة أو اسمها - يمثّل

في القرن العشرين فضيحة، ويشكّل عبئاً ثقيلاً على أدبنا الذي يعيش نشاطاً ملحوظاً.

هناك أمر لا يقبل الجدال: إذا كانت فنوننا مزدهرة اليوم، فهذا بفضل تقدُّم حرية الفكر. ويعتمد مصير الأدب التشيكي على نحوٍ وطيد اليوم على مدى هذه الحرية. أعلم أنه بمجرد التفوه بكلمة الحرية، هناك من سينتابه الغضب ويبدأ بالاحتجاج، مشيراً إلى ضرورة وجود حدود لحرية الأدب الاشتراكي. من الطبيعي أن يكون لكل حرية حدودها التي تحددها حالة المعرفة، ومدى الأحكام المسبقة، ومستوى التعليم، إلخ. ولكن، رغم ذلك، لم يُعرَّف عصر تقدمي جديد بحدوده! لم يُعرِّف عصر النهضة نفسه بالسذاجة الضيقة لعقلانيته - لم تتجلى هذه إلا في وقت لاحق - بل بالتحرر العقلاني من حدود الماضي. عرَّفت الرومانسية نفسها بتجاوز الشرائع الكلاسيكية والمادة الجديدة التي تمكنت من استيعابها بعد عبورها الحدود القديمة. وبالمثل، فإن مصطلح الأدب الاشتراكي لن يكتسب معنى إيجابياً ما لم يحقِّق التحرر نفسه.

ومع ذلك، فما زلنا ننظر هنا إلى الدفاع عن الحدود الموجودة باعتباره فضيلة، مقارنة بأي سعي لتجاوز هذه الحدود، وتعمل الظروف السياسية والمجتمعية المختلفة

على تبرير العديد من القيود المفروضة على حرية الفكر. لكن السياسة الجديرة بهذا الاسم هي تلك التي تولي الأولوية للمصالح الجوهرية على حساب المصالح المباشرة. وبالنسبة للشعب التشيكي، فإن عظمة ثقافته تمثّل فعلياً هذه المصلحة الجوهرية.

ويبدو هذا أكثر جلاءً الآن مع الآفاق المتميزة التي تنتظر الثقافة التشيكية. ففي القرن التاسع عشر، عاش الشعب التشيكي على هامش التاريخ العالمي، أما في القرن الحالي، فنحن في قلب هذا التاريخ. وكما هو معلوم، فإن هذا الوضع أبعد ما يكون عن الترف. لكن مع ذلك، في المجال السحري للفنون، يتحول العذاب إلى ثروة إبداعية، وعلى هذا الأساس، تصبح التجربة المريرة للستالينية ميزةً، رغم ما يمثله ذلك من تناقض. لا يعجبني وضع الفاشية والشيوعية على قدم المساواة. فقد شكلت الفاشية القائمة على معاداة لا هوادة فيها للإنسانية وضعاً شديد البساطة على الصعيد الأخلاقي: بعدما قدمت نفسها بوصفها نقيضاً للمبادئ والفضائل الإنسانية، لقد تركتها على حالها. أما الستالينية فقد كانت وريثة حركة إنسانية عظيمة تمكنت، رغم الغضب الستاليني، من الاحتفاظ بالعديد من المواقف والأفكار والشعارات والكلمات والأحلام الأصلية. وأن

نرى هذه الحركة الإنسانية تتحول إلى نقيضها، وتسحب معها كل الفضائل الإنسانية، وتحول حب الإنسانية إلى قسوة تجاه البشر، وحب الحقيقة إلى وشاية، وما إلى ذلك، أن نرى ذلك يولد رؤية غير متوقعة لأسس القيم والفضائل الإنسانية نفسها. ما هو التاريخ، ما هو موقع الإنسان في التاريخ، وما هو الإنسان بحد ذاته؟ لا يمكنك الإجابة على كل هذه الأسئلة بالطريقة نفسها قبل هذه التجربة وبعدها. فلم يخرج منها أحد كما دخلها. لكن ليست الستالينيةُ وحدها مسؤولةً عن ذلك بالطبع، فأعادت تنقلات هذا الشعب بين الديمقراطية والنير الفاشي والستالينية والاشتراكية (تاريخ تفاقمت آثاره بسبب بيئة عرقية معقدة) إنتاج جميع العناصر الرئيسية لتاريخ القرن العشرين. وقد يسمح لنا هذا بطرح أسئلة أكثر وجاهة وصياغة أساطير أكثر مغزى من أولئك الذين لم يخوضوا الرحلة نفسها.

خلال هذا القرن، عاش شعبنا تجارب تفوق ما عاشته الشعوب الأخرى، فاكتسبت عبقريته بذلك زخماً أكبر. يمكن لهذه التجربة المميزة أن تتحول إلى تحرر يخترق الحدود القديمة ويتجاوز الحدود الحالية لمعرفة الإنسان ولمصيره، فتمنح بالتالي معنى وعظمة ونضجاً للثقافة التشيكية. قد لا يتعلق الأمر حالياً سوى بفرصة وإمكانيات،

لكن العديد من الإبداعات التي ظهرت في السنوات الأخيرة تكشف حقيقة امتلاكنا لهذه الثروة.

ومع ذلك، ينبغي لي أن أطرح هذا السؤال على نفسي من جديد: هل مجتمعنا الوطني مدرك لهذه الفرصة؟ هل يعلم أنه يملكها؟ هل يعلم أن مثل هذه الفرصة التاريخية لا تأتي مرتين؟ هل يعلم أن إضاعة هذه الفرصة سيعني إفساد القرن العشرين بالنسبة إلى الشعب التشيكي؟

كتب بالاكي قائلاً: **من الشائع الاعتقاد بأن الكُتّاب التشيكيين أنقذوا أمتنا من زوالها وأيقظوها ووضعوا أهدافاً سامية لجهودها الخاصة.** إن الكُتّاب التشيكيين هم الذين يتحملون مسؤولية كبيرة في بقاء شعبنا نفسه، وحتى يومنا هذا، فالإجابة على سؤال بقاء هذا الشعب تعتمد بدرجة أولى على جودة الأدب التشيكي، عظمته أو ضآلته، شجاعته أو جبنه، محلّيته أو مكانته العالمية.

لكن، هل يستحق هذا البقاء كل هذا العناء؟ هل يستحق بقاء لغته كل هذا العناء أيضاً؟ هذه الأسئلة الجوهرية، التي وُضِعت في أسس الوجود الحديث لهذه الأمة، ما زالت تنتظر إجابات نهائية. لذا فإن كل مَن يسعى بالتعصب الأعمى أو التخريب أو الفقر الثقافي أو ضيق الأفق إلى عرقلة الإشعاع الثقافي الحالي، فإنه يعرقل وجود هذا الشعب نفسه.

الغرب المختطف

تقديم

نُشِر هذا المقال لأول مرة في مجلة **المناظرة** (*Le Débat*) في نوفمبر 1983 (العدد 27)، ليُترجَم إلى معظم اللغات الأوروبية، ويخلف تأثيراً كبيراً لا علاقة له بقصره. عشرون صفحة تسببت في اندلاع موجة من ردود الفعل في أوروبا الشرقية، واحتدام النقاشات والجدالات في ألمانيا وروسيا. فيما أدت في أوروبا الغربية إلى «إعادة تشكيل الخريطة الذهنية لأوروبا» في فترة ما قبل 1989، وفق تعبير جاك روبنيك. فما الذي حملته هذه الصفحات وكان له هذا التأثير «التفجيري»؟

في وقت كان الغرب ينظر فيه إلى أوروبا الوسطى باعتبارها جزءاً من الكتلة الشرقية لا أكثر، سعى كونديرا بشدة لتذكير هذا الغرب بأن ثقافة تلك المنطقة تنتمي إليه بالكامل، وأنه في حالة هذه «الأمم الصغيرة» الضعيفةِ

الثقةِ بوجودها التاريخي والسياسي (بولندا، المجر، تشيكوسلوفاكيا)، فإن الثقافة كانت ولا تزال ملاذاً لهويتها.

كونديرا، الذي طبع إحياءُ الفنون والأدب والسينما في الستينيات في تشيكوسلوفاكيا تكوينَه الشخصي، رأى في حيوية هذه الثقافة طريقة للتحضير لربيع براغ. ثقافة لم تكن حكراً على النخب، بل قيمة حية ينتظم حولها الشعب. وقد قام بتوسيع نطاق رؤيته لتشمل التراث الثقافي لأوروبا الوسطى بأكملها، مع ثورة المجر «العظيمة» في عام 1956، وثورات بولندا في 1956 و1968 و1970. «أوروبا الوسطى، أقصى قدر من التنوع في أضيق مساحة ممكنة».

تختلف مأساة أوروبا الوسطى عن نظيرتها في الغرب، الذي لا يريد رؤيتها ولم يلحظ اختفاءها، كما أنه لم يدرك نطاق هذه المأساة، لأنه لم يعد يفكر في نفسه ضمن بعده الثقافي. استندت وحدته في العصور الوسطى على المسيحية، ثم في العصور الحديثة على التنوير. لكن ماذا عن اليوم؟ لقد انتقل إلى ثقافة ترفيهية مرتبطة بهيمنة السوق وتقنيات المعلومات. فأي معنى للمشروع الأوروبي اليوم؟

لا تأتي قيمة هذا النص من قوة حججه فحسب، بل

من الصوت الشخصي والقلق لمؤلِّفه أيضاً، الذي فرض نفسه وقتئذ كأحد أعظم الكُتّاب الأوروبيين.

لقد لعب «الغرب المختطف» دوراً حاسماً في تكوين المثقفين الفرنسيين مثل آلان فينكلكروت[1]، في دفاعه عن «الأمم الصغيرة» أيام الحرب في يوغوسلافيا، في كتابه **هزيمة الفكر** (*La Défaite de la pensée*) عام 1987، وفي إصداره العام نفسه لمجلته **المبشر الأوروبي** (*Le Messager européen*). فبطريقة غير مباشرة، هيأ هذا المقالُ العقولَ لتوسيع أوروبا لتشمل دول أوروبا الشرقية. ومن يدري ما إذا كان تأثيره المنتشر قد حافظ إلى يومنا هذا على نشاطه في تحفيز بلدان أوروبا الوسطى على البقاء وفية لتراثها التاريخي وهويتها الثقافية؟

بيير نورا[2]

---

(1) آلان فينكلكروت (1949): كاتب وفيلسوف فرنسي، عضو الأكاديمية الفرنسية - المترجم.

(2) بيير نورا (1931): مؤرخ فرنسي - المترجم.

الغرب المختطف
أو مأساة أوروبا الوسطى
1983

1

في سبتمبر عام 1956، أرسل مدير وكالة الأنباء المجرية عبر التلكس، وقبل دقائق من تدمير المدفعية لمكتبه، رسالة يائسة إلى العالم حول الهجوم الروسي الذي انطلق صباح ذلك اليوم ضد بودابست. اختتم البرقية بهذه الكلمات: «سنموت في سبيل المجر وفي سبيل أوروبا».

ما المقصود بهذه الجملة؟ لقد عنت بالتأكيد أن الدبابات الروسية كانت تهدد المجر، ومعها أوروبا. ولكن بأي معنى كانت أوروبا في خطر؟ هل كانت الدبابات الروسية مستعدة لعبور الحدود المجرية باتجاه الغرب؟ لا. أراد مدير وكالة الأنباء المجرية أن يقول إن أوروبا كانت

مستهدفة في المجر نفسها. كان مستعداً للموت حتى تظل المجرُ المجرَ وتظل أوروبا في الآن ذاته.

حتى لو بدا معنى الجملة واضحاً، فإنها ما زالت تُحيِّرنا. فنحن اعتدنا على الاعتقاد، هنا في فرنسا، كما في أميركا، على أن المستهدف عندئذ لم يكن المجر أو أوروبا بل نظاماً سياسياً. ما كان أحد ليقول إن المجر بحد ذاتها كانت مهددة، وما كان أحد ليفهم بشكل واضح وجلي كيف خاطب مجري أوروبا بأسرها وهو يواجه موته المحتوم. هل اعتبر سولجنتسين أوروبا قيمةً أساسيةً تستحق الموت من أجلها عندما ندد بالقمع الشيوعي؟

لا، لا يمكن التفكير في عبارة «أن تموت في سبيل وطنك وفي سبيل أوروبا» في موسكو أو لينينغراد، بل في بودابست أو وارسو على وجه التحديد.

2

إذاً، ما الذي تمثله أوروبا بالنسبة إلى مجري أو تشيكي أو بولندي؟ انتمت هذه الأمم منذ البداية إلى الجزء الأوروبي المتجذر في المسيحية الرومانية، بل وشاركت في كل المراحل التي شكلت تاريخه. فلا تمثل كلمة

«أوروبا» بالنسبة لها ظاهرة جغرافية، بل مفهوماً روحياً مرادفاً لكلمة «غرب». ففي الوقت الذي لم تعد فيه المجر أوروبا، أي الغرب، تم دفعها بعيداً عن مصيرها وتاريخها، بل إنها فقدت جوهر هويتها.

لطالما كانت أوروبا الجغرافية (التي تمتد من المحيط الأطلسي إلى جبال الأورال) مقسمة إلى نصفين تطورا بشكل منفصل: أحدهما مرتبط بروما القديمة والكنيسة الكاثوليكية (علامة مميزة: الأبجدية اللاتينية)؛ والآخر متجذر في بيزنطة والكنيسة الأرثوذكسية (علامة مميزة: الأبجدية السيريلية). بعد عام 1945، تزحزحت الحدود بين هذين الشطرين بضع مئات الكيلومترات نحو الغرب، واستيقظت ذات يوم بعض الأمم الأوروبية التي لطالما اعتبرت نفسها غربية لتجد نفسها محسوبة على الشطر الشرقي. مكتبة سر من قرأ

نتيجة لذلك، تشكلت بعد الحرب ثلاثة أوضاع أساسية في أوروبا: وضع أوروبا الغربية، ووضع أوروبا الشرقية، والوضع الأكثر تعقيداً، في هذا الجزء من أوروبا الواقع جغرافياً في الوسط لكنه ثقافياً في الغرب وسياسياً في الشرق.

إنّ هذا الوضع المتناقض في أوروبا التي أسميها

وسطى يمكن أن يساعدنا على فهم سبب تمركز مأساة أوروبا طيلة خمسة وثلاثين عاماً هنا: الثورة المجرية العظيمة عام 1956 والمذبحة الدموية التي أعقبتها؛ ربيع براغ واحتلال تشيكوسلوفاكيا عام 1968؛ الثورات البولندية في أعوام 1956 و1968 و1970 وثورات السنوات الأخيرة. فلا يمكن مقارنة أي شيء مما يحدث في أوروبا الجغرافية، سواء في الغرب أو في الشرق، بهذه السلسلة من الثورات في أوروبا الوسطى[1]، لا في

---

(1) هل يمكننا إدراج ثورة عُمّال برلين عام 1953 ضمن هذه الثورات؟ نعم ولا. لمصير ألمانيا الشرقية طابعه الخاص. فلا وجود «لبولندتين». من جهة أخرى، فإن ألمانيا الشرقية ليست سوى جزء من ألمانيا التي لا يخضع وجودها القومي لأي تهديد بأي حال من الأحوال. يلعب هذا الجزء في أيدي الروس دور الرهينة، تنفذ كل من ألمانيا الغربية والاتحاد السوفييتي تجاهها سياسة خاصة جداً، لا تنطبق على دول أوروبا الوسطى، والتي على ما يبدو لي، قد تقوم يوماً على حسابها. قد يكون هذا السبب في أن التعاطف بين الألمان الشرقيين والآخرين ليس عفوياً. وقد تابعنا ذلك عندما احتلت جيوش حلف وارسو الخمسة تشيكوسلوفاكيا. كان الروس والبلغار والألمان الشرقيون مثيرين للخوف ومخيفين في الآن ذاته. لكن من جهة أخرى، فبإمكاني سرد عشرات القصص عن البولنديين والمجريين الذين بذلوا قصارى جهدهم لإظهار معارضتهم للاحتلال وتخريبهم له بشكل صريح. وإذا أضفنا إلى هذا التواطؤ البولندي-المجري-التشيكي المساعدةَ الحماسية حقاً التي قدمتها النمسا للتشيك والغضب المناهض للسوفييت الذي استولى على اليوغوسلافيين، =

محتواها المأسوي ولا في أهميتها التاريخية. وقد دعمتْ معظمُ فئات تلك الشعوب هذه الثورات. ولو لم تكن مدعومة من قِبل روسيا، لما كانت الأنظمة هناك لتصمد أكثر من ثلاث ساعات. بعد قولي هذا، لا يمكن اعتبار ما كان يحدث في براغ أو وارسو في جوهره مأساة خاصة بأوروبا الشرقية، والكتلة السوفييتية، والشيوعية، بل مأساة خاصة بأوروبا الوسطى.

فلا يمكن تصور اندلاع مثل هذه الثورات التي يدعمها عموم الشعب في روسيا مثلاً، ولا يمكن تخيل اندلاعها حتى في بلغاريا، البلد الذي، كما يعلم الجميع، هو الجزء الأكثر استقراراً في الكتلة الشيوعية. لماذا؟ لأن بلغاريا هي منذ نشأتها جزء من حضارة الشرق، وذلك بفضل الديانة الأرثوذكسية التي كان مُبَشِّروها الأوائل من البلغار. وبالتالي فإن عواقب الحرب الأخيرة تعني بالنسبة للبلغار تغييراً سياسياً كبيراً ومؤسفاً بكل تأكيد (حقوق الإنسان منتهَكة هناك كما في بودابست)، لكنه لا يعادل بأي حال من الأحوال صدام الحضارات الذي مثله بالنسبة للتشيك والبولنديين والمجريين.

= فإننا نلاحظ كيف أن احتلال تشيكوسلوفاكيا أظهر، وعلى الفور، مساحة أوروبا الوسطى التقليدية بشكل واضح وضوح الشمس.

3

تتمظهر هويةُ شعبٍ أو حضارةٍ وتتلخص في مجموع الإبداعات الروحية التي عادة ما تسمى «الثقافة». إذا كانت هذه الهوية مهددة بالموت، فإن الحياة الثقافية تزداد زخماً ونشاطاً، وتصبح الثقافة قيمة حية ينتظم حولها كل أفراد الشعب. لهذا السبب، لعبت الذاكرة الثقافية والإبداع المعاصر، في جميع ثورات أوروبا الوسطى، دوراً كبيراً وحاسماً لا مثيل له في أي ثورة شعبية أوروبية[1].

ففي المجر، أطلق عدد من الكُتّاب ممن انتظموا في حلقة حملت اسم الشاعر الرومانسي بيتوفي موجة عظيمة من التفكير النقدي، فأعدوا بذلك لانفجار عام 1956. وقد ساهم المسرح، والسينما، والأدب، والفلسفة، على مدى سنين طويلة في الإعداد للموجة التحررية لربيع براغ.

---

(1) هي مفارقة يصعب على المراقب الخارجي فهمها: إن حقبة ما بعد 1945 هي الأكثر مأسوية في أوروبا الوسطى، ولكنها أيضاً واحدة من أعظم الحقب على مستوى تاريخها الثقافي. سواء في المنفى (غومبروفيتش، ميلوش)، أو على شكل إبداع سري (تشيكوسلوفاكيا ما بعد عام 1968) أو كنشاط تغاضت عنه السلطات مجبرة على الاستسلام لضغوط الرأي العام، إن السينما، والرواية، والمسرح، والفلسفة التي ظهرت هناك خلال تلك الفترة تمثل إحدى قمم الإبداع الأوروبي.

وكان منع عرض لميكيفيتش، أعظم شاعر بولندي رومانسي، هو ما أشعل فتيل الثورة الشهيرة للطلاب البولنديين عام 1968. فهذا التزاوج السعيد بين الثقافة والحياة، وبين الإبداع والشعب، هو ما ميز ثورات أوروبا الوسطى بجمالية فريدة، سنظل، نحن الذين عشناها، منبهرين بها إلى الأبد.

وما أجده جميلاً هنا، بالمعنى الأعمق للكلمة، يراه مثقف ألماني أو فرنسي مشكوكاً فيه إلى حد ما. فلدى هذا المثقف انطباع بأن هذه الثورات لا يمكن أن تكون حقيقية وشعبية حقاً ما دامت خاضعة لتأثير ثقافي كبير. إنه لأمر غريب، لكن بالنسبة إلى البعض، فإن الثقافة والشعب مفهومان غير متوافقين، إذ ترتبط فكرة الثقافة في أذهانهم بصورة نخبة متميزة. وهذا هو السبب في ترحيبهم بحركة **تضامن** بتعاطف يفوق نظيره خلال الثورات السابقة. ومع ذلك، ومهما قيل، لا تتميز حركة **تضامن** في جوهرها عن سابقاتها، بل هي ذروتها فحسب: أي الاتحاد الأكثر اكتمالاً (والأكثر تنظيماً) بين الشعب والتراث الثقافي الذي تعرض للاضطهاد والإهمال والترهيب في هذا البلد.

4

قد يُرَد عليّ كما يلي: حتى لو أقررنا بأن دول أوروبا الوسطى تدافع عن هويتها المهددة، فهذا لا يجعل وضعها بهذه الخصوصية. فروسيا نفسها في وضع مماثل. هي أيضاً تفقد هويتها. بالفعل، ليست روسيا بل الشيوعية هي التي تحرم الأمم من جوهرها، بل وجعلت من الشعب الروسي ضحيتها الأولى. من المؤكد أن اللغة الروسية تخنق لغات الأمم الأخرى في عموم الإمبراطورية، لكن الأمر لا يعني أن الروس يرغبون في «ترويس» الآخرين، بل إنَّ البيروقراطية السوفييتية بمعارضتها للقومية، ومناهضتها للقومية، وتجاوزها للقومية، بحاجة إلى أداة تقنية لتوحيد دولتها.

أنا أتفهم هذا المنطق، وأتفهم أيضاً ضعف الروس الذين يعانون من فكرة الخلط بين الشيوعية المكروهة ووطنهم الحبيب.

لكن يجب علينا أن نفهم أيضاً المواطن البولندي الذي استعبدت روسيا وطنَه طوال قرنين من الزمان باستثناء فترة قصيرة بين الحربين، وخضع طوال هذا الوقت لترويس طويل النفس وبلا هوادة.

في أوروبا الوسطى التي تمثّل الحدود الشرقية للغرب، كنا دائماً أكثر حساسية تجاه خطر القوة الروسية، ولم يكن هذا حكراً على البولنديين فحسب. فعام 1848، كتب فرانتيسك بالاكي، المؤرخ العظيم والشخصية التاريخية الأكثر تمثيلاً للسياسة التشيكية خلال القرن التاسع عشر، رسالة شهيرة إلى البرلمان الثوري في فرانكفورت، مبرراً فيها وجود إمبراطورية هابسبورغ[1]، باعتبارها الحصن الوحيد الممكن ضد روسيا، «هذه القوة ذات المساحة الهائلة اليوم، والتي تضاعف قوتَها بما يفوق ما يمكن أن تفعله أي دولة غربية». يحذر بالاكي هنا من الطموحات الإمبريالية لروسيا، التي تحاول أن تصبح «نظاماً ملكياً عالمياً»، أي تتطلع إلى الهيمنة على العالم. ويقول بالاكي إن «النظام الملكي العالمي لروسيا سيكون مصيبة هائلة لا يمكن وصفها، مصيبة لا حدود لها».

بحسب بالاكي، كان ينبغي لأوروبا الوسطى أن تكون موطناً لأمم متساوية، من شأنها، مع وجود احترام متبادل

---

(1) إمبراطورية هابسبورغ: مصطلح يصف الأراضي والممالك التابعة لعائلة هابسبورغ الملكية، وتضم أجزاء من النمسا وأوروبا الشرقية والوسطى وبقايا ما عُرف سابقاً بالإمبراطورية الرومانية المقدسة - المترجم.

وفي ظل دولة مشتركة وقوية، أن تستفيد من تنوع أصولها. وعلى الرغم من أن هذا الحلم الذي تشاركته كل العقول العظيمة في أوروبا الوسطى لم يتحقق بالكامل أبداً، إلا أنه حافظ على قوته وتأثيره. أرادت أوروبا الوسطى أن تمثّل صورة مكثفة لأوروبا وتنوع ثرواتها، أوروبا صغيرة ومحافظة على طابعها الأوروبي، نموذج مصغّر لأوروبا الأمم تحترم قاعدة: «أقصى قدر من التنوع في أضيق مساحة ممكنة». فكيف يمكن لها ألا تشعر بالخوف من روسيا التي تستند أمامها إلى القاعدة المعاكسة: «أدنى قدر من التنوع في أوسع مساحة ممكنة؟».

فعلاً، لا شيء يمكنه أن يكون أكثر غرابةً على أوروبا الوسطى الشغوفة بالتنوع من روسيا الموحِّدة، الموحَّدة، الساعية إلى المركزية، والتي حولت بعزم هائل كل أمم إمبراطوريتها (الأوكرانيين، البيلاروسيين، الأرمن، اللاتفيين، الليتوانيين، إلخ) إلى شعب روسي واحد (أو، كما نفضل أن نقول اليوم في عصر الغموض العام للمصطلحات، إلى شعب سوفيتي واحد).

وبذلك، هل يمكن القول إن الشيوعية هي نفي للتاريخ الروسي؟ أم إنها تحقيق له؟

إنها، وبكل تأكيد، نفي لهذا التاريخ (نفي لتدينه على

سبيل المثال) وتحقيق له (تحقيق لميوله المركزية وأحلامه الإمبراطورية) في الآن ذاته.

بالنظر من داخل روسيا، يبدو الوجه الأول، الذي يعتمد عدم الاستمرارية، أكثر وضوحاً. أما من منظور البلدان المستعبَدة، فيبدو الوجه الثاني، باستمراريته، أشدّ ما تشعر به شعوبها[1].

مكتبة
t.me/soramnqraa

5

لكن، ألا يعني هذا أنني أضع روسيا في مواجهة الحضارة الغربية بشكل مطلق أكثر من اللازم؟ فأوروبا، وإن كانت مقسمة إلى جزأين أحدهما غربي والآخر شرقي، أليست رغم كل شيء كياناً واحداً متجذراً في الحضارة اليونانية القديمة وما يسمى بالفكر اليهودي-المسيحي؟

---

(1) يقول لشك كولاكوفسكي (مجلة *Zeszyty literacke*، العدد 2، باريس، 1983): «على الرغم من اعتقادي، مثل سولجنتسين، أن النظام السوفييتي قد تجاوز نظيره القيصري في طابعه القمعي... إلا أنني لن أذهب إلى حدود تمجيد النظام الذي حاربه أجدادي في ظروف مروعة، وماتوا، وتعرضوا للتعذيب والإذلال... أعتقد أن سولجنتسين يميل إلى إضفاء طابع مثالي على القيصرية، وهو ما لا يمكنني، لا أنا ولا أي بولندي آخر، قبوله».

بطبيعة الحال. والجذور القديمة البعيدة تجمعنا بروسيا، كما اقتربت روسيا من أوروبا خلال القرن التاسع عشر، وكان الافتتان متبادلاً. فأعلن ريلكه أن روسيا موطنه الروحي، كما لم يفلت أحد من عظمة الرواية الروسية التي لا تنفصل أبداً عن الثقافة الأوروبية المشتركة.

نعم، كل هذا صحيح، وسيظل الترابط الثقافي بين شطرَي أوروبا ذكرى عظيمة[1]. ولكن صحيح أيضاً في المقابل أن الشيوعية الروسية قد أعادت، وبقوة، إحياء الهواجس الروسية القديمة المعادية للغرب، وانتزعتها بوحشية من التاريخ الغربي.

لا بد لي من التأكيد مرة أخرى على ما يلي: على الحدود الشرقية للغرب، وأكثر من أي مكان آخر، يُنظر

---

(1) إن أجمل ارتباط روسي-غربي هو أعمال سترافينسكي التي تلخص تاريخ ألف عام بأكملها من الموسيقى الغربية، وتظل في الآن ذاته، من خلال خيالها الموسيقي، روسية بامتياز. كما هناك ارتباط مميز آخر في أوروبا الوسطى في عرضَي أوبرا رائعَين لأحد أكبر عشاق روسيا، ليوش ياناتشيك: واحد استناداً لأوستروفسكي (**كاتيا كابانوفا**، 1924)، والآخر والذي أعجبت به كثيراً، استناداً لدوستويفسكي (**مذكرات من البيت الميت**، 1928). ولكن ما يدعو للتأمل أن هذين العرضَين لم يُقدَّما أبداً في روسيا، بل إن وجودهما ذاته غير معروف هناك، إذ ترفض روسيا الشيوعية أي ارتباط بالغرب وتعتبره غير لائق.

إلى روسيا باعتبارها مناهضة للغرب، فهي لا تظهر فقط كقوة أوروبية لها موقعها بين نظيراتها، بل كحضارة مختلفة، حضارة أخرى.

يتحدث تشيسلاف ميلوش عن ذلك في كتابه **أوروبا أخرى**: في القرنين السادس عشر والسابع عشر، بدا أهل موسكو للبولنديين «كبرابرة نحاربهم على حدود بعيدة. لم نكن مهتمين بهم بشكل خاص... ومن هذه الفترة التي كان فيها الشرق عبارة عن فراغ، اشتق البولنديون مفهومَ روسيا تقع «في الخارج»، بعيداً عن العالم[1]».

أولئك الذين يمثلون عالماً آخر يبدون كـ«برابرة». وهذا ما مثّله الروس دائماً بالنسبة للبولنديين. يروي كازيميرز براندیس هذه القصة الجميلة: التقى كاتب بولندي بآنا أخماتوفا، الشاعرة الروسية العظيمة، واشتكى البولندي من وضعه: لقد مُنعت جميع أعماله، فقاطعته قائلة: «هل سُجنتَ؟». أجاب البولندي بالنفي. «هل

---

(1) حتى جائزة نوبل نفسها لم تكن كافية لزلزلة اللامبالاة الغبية للناشرين الأوروبيين تجاه ميلوش. ففي نهاية المطاف، هو شاعر حاذق وعظيم لدرجة تجعله أكبر من أن يصبح شخصية ملائمة لعصرنا. يقدم كتاباه الفكريان، **الفكر الأسير** (1953) و**أوروبا أخرى** (1959) الذي اقتبستُ عنه، أول التحليلات الدقيقة وغير المانوية للشيوعية الروسية وتوسعها غرباً (Drang nach West).

طُردتَ على الأقل من اتحاد الكُتّاب؟». - لا. «ما الذي تشكو منه إذاً؟». كانت أخماتوفا متحيِّرة بحق.

وعلّق براندیس على هذه القصة بقوله: «هذه هي المواساة الروسية. لا شيء يبدو لهم مروعاً بما يكفي مقارنة بالمصير الروسي. لكن لا معنى لهذه المواساة، فالمصير الروسي ليس جزءاً من وعينا؛ بل هو غريب علينا. نحن لسنا مسؤولين عنه. هو يثقل كاهلنا، لكنه ليس تراثنا. كانت هذه أيضاً علاقتي بالأدب الروسي. لقد أخافني هذا الأدب. وما زلت إلى يومنا هذا أشعر بالرعب من بعض القصص التي كتبها غوغول، وكل ما كتبه سالتيكوف شيدرين[1]. كنت أفضّل عدم معرفة عالمهم، بل وتجاهل وجوده[2]».

بطبيعة الحال، لا يعني ما قاله براندیس عن غوغول رفضاً لفن غوغول، بل لفظاعة **العالَم** الذي يصفه هذا

---

(1) ميخائيل سالتيكوف شيدرين (1826-1889): أحد أبرز روائيي الواقعية الأدبية الروسية خلال القرن التاسع عشر - المترجم.

(2) قرأت في جلسة واحدة مخطوطة الترجمة الأمريكية لكتاب براندیس هذا بعنوان *Miesiace* (الأشهر) باللغة البولندية، و*Warsaw Diary* باللغة الإنجليزية. إذا لم تكونوا راغبين بالاكتفاء بالتعليقات السياسية السطحية وأردتم اختراق جوهر المأساة البولندية، فأدعوكم إلى عدم تفويت فرصة قراءة هذا الكتاب الرائع!

الفن: يسحرنا هذا العالَم ويجذبنا عندما يكون بعيداً، لكنه يكشف عن كل غرابته الرهيبة بمجرد اقترابه منا وتطويقه لنا: لديه بعد آخر (أكبر) للتعاسة، صورة أخرى للمساحة (مساحة شاسعة إلى درجة أنها ابتلعت أمماً بأكملها)، ووتيرة أخرى للزمن (زمن بطيء وصبور)، وطريقة أخرى للضحك، وللعيش، وللموت[1].

لهذا تشعر ما أسميها أوروبا الوسطى بتغيّر مصيرها بعد 1945 ليس فقط ككارثة سياسية، بل كوضع حضارتها موضع تساؤل أيضاً. فالمعنى الأعمق لمقاومتها هو الدفاع عن هويتها، أو بعبارة أخرى: الدفاع عن انتمائها للغرب.

---

(1) إن أجمل وأوضح ما قرأت عن روسيا بوصفها حضارة لها خصوصيتها هو ما كتبه سيوران في **روسيا وفيروس الحرية**، وهو نص نُشِر في كتابه **تاريخ ويوتوبيا** (1960). ويضم كتاب **إغواء الوجود** (1956) بدوره مجموعة من الأفكار المتميزة عن روسيا وأوروبا. ويبدو لي أن سيوران أحد المفكرين القلائل الذين ما زالوا يطرحون السؤال القديم عن أوروبا، في أبعاده الكاملة. علاوة على ذلك، ليس سيوران الفرنسي من يطرح السؤال، بل سيوران الوسط-أوروبي الذي أتى من رومانيا، بلد «نشأ ليختفي، منظم بشكل رائع لكي يتم ابتلاعه» (**إغواء الوجود**). نحن لا نفكر في أوروبا إلا بوصفها أوروبا مبتلَعة.

6

لا تساورنا أية أوهام حول أنظمة الدول التابعة لروسيا، لكننا ننسى جوهر مأساتها: لقد اختفت من خريطة الغرب.

كيف نفسِّر أن هذا الجانب من المأساة قد ظل غير مرئي تقريباً؟

يمكن تفسير ذلك أولاً بمساءلة أوروبا الوسطى نفسها.

كان للبولنديين والتشيك والمجريين تاريخ مضطرب ومجزأ، وتقاليد حكم أقل قوة وأقل استمرارية من تقاليد الشعوب الأوروبية العظمى. محاصرة من الألمان من جهة والروس من جهة أخرى، استنفدت هذه الأمم الكثير من قواها في كفاحها من أجل بقائها والحفاظ على لغتها. ونظراً لعجزها عن اختراق الوعي الأوروبي بشكل كافٍ، فقد ظلت الجزء الأقل شهرة والأكثر هشاشة في الغرب، بل ومختبئة أيضاً خلف ستار لغاتها الغريبة التي يصعب فك شفراتها.

توفّرت للإمبراطورية النمساوية فرصة سانحة لإنشاء دولة قوية في أوروبا الوسطى. لكن، وللأسف الشديد،

انقسم النمساويون بين القومية المتعجرفة لألمانيا العظمى ومهمتهم الخاصة بوسط أوروبا. لم يتمكنوا من بناء دولة فدرالية تضم أمماً متساوية، فتحول فشلهم إلى مأساة لأوروبا بأسرها. استاءت باقي أمم وسط أوروبا من الإمبراطورية فساهمت في انهيارها عام 1918، دون أن تدرك استحالة تعويضها رغم كل عيوبها. وهكذا، تحولت أوروبا الوسطى بعد الحرب العالمية الأولى إلى منطقة تضم دولاً صغيرة ضعيفة، سمح ضعفُها بفتوحات هتلر الأولى وانتصار ستالين النهائي. وربما لا تزال هذه البلدان في اللاوعي الأوروبي الجماعي مرادفاً لمجموعة من مثيري الشغب الخطيرين.

ولكي أكون صادقاً، لقد رأيت أخيراً خطأ أوروبا الوسطى فيما سأطلق عليه «أيديولوجيا العالَم السلافي». أقول «أيديولوجيا» لأنه خداع سياسي جرى اختلاقه خلال القرن التاسع عشر. يحب التشيك (رغم التحذير الصارم لشخصياتهم الأكثر حضوراً) التلويح بها في دفاعهم الساذج ضد العدوان الألماني. أما الروس فقد استخدموها لتبرير أهدافهم الإمبراطورية. «يحب الروس تسمية كل ما هو روسي بأنه سلافي، بما يمكِّنهم لاحقاً من تسمية كل ما هو

سلافي بأنه روسي»، قال عام 1844 الكاتب التشيكي العظيم كاريل هافليسيك[1] الذي حذّر مواطنيه من حبهم الأحمق وغير الواقعي لكل ما هو روسي. غير واقعي لأن خلال تاريخهم الممتد لما يفوق الألف سنة، لم يكن للتشيك أي اتصال مباشر مع روسيا. فعلى الرغم من وجود قرابة لغوية، لم يكن هناك **عالَم** مشترك بينهم، ولا تاريخ مشترك، ولا ثقافة مشتركة، كل هذا فيما كانت علاقات البولنديين مع الروس عبارة عن صراع حياة أو موت.

---

(1) كان كاريل هافليسيك بوروفسكي في الثانية والعشرين من عمره عندما ذهب إلى روسيا عام 1843، ومكث هناك لمدة عام. لقد وصل إلى هناك كسلافي متحمس، ليتحول سريعاً إلى أحد أقسى منتقدي روسيا، وقد صاغ آراءه في رسائل ومقالات جُمعت لاحقاً في كتاب صغير. إنها «رسائل من روسيا» أخرى كُتبت في العام نفسه تقريباً من رسائل كوستين، وتوافقت مع آراء الرحالة الفرنسي (غالباً ما كانت أوجه الشبه مسلية. يقول كوستين: «إذا كان ابنك غير راضٍ عن فرنسا، فإليك نصيحتي: اطلب منه الذهاب إلى روسيا، فكل من يعرف هذا البلد بشكل تام سيكون سعيداً إلى الأبد بالعيش في مكان آخر». أما هافليسيك فقد قال: «إذا كنتم ترغبون في تقديم خدمة حقيقية للتشيك، فادفعوا لهم تكاليف رحلة إلى موسكو!»). هذا التشابه مهم لأن هافليسيك، وهو مواطن تشيكي من عامة الشعب، لا يمكن أن يُشتبه في تحيزه ضد روسيا. ويُعتبَر هافليسيك الشخصية الأكثر تمثيلية للسياسة التشيكية في القرن التاسع عشر، نظراً للتأثير الذي مارسه على بالاكي وخاصة على ماساريك.

منذ حوالي ستين عاماً، كتب جوزيف كونراد كورزينيوسكي، المعروف باسم جوزيف كونراد، والمنزعج من تسمية «الروح السلافية» التي أحب الناس ربطه وكتبه بها نظراً لأصوله البولندية، قائلاً: «لا شيء أكثر غرابة عن الطبع البولندي مما يُسمّى في الوسط الأدبي بـ«الروح السلافية»، فهذا الطبع يميّزه الإحساس الشهم بالقيود الأخلاقية واحترامه المبالغ فيه للحقوق الفردية». (كم أفهمه! بالنسبة لي أيضاً، لا شيء أكثر سخافة من ذلك التبجيل للأعماق المظلمة، هذه الشاعرية الصاخبة بقدر ما هي فارغة والمسماة «الروح السلافية»، والتي تُنسب إليّ من وقت لآخر![1])

---

(1) يوجد كتاب صغير ممتع يحمل عنوان *How to be an Alien* حيث يتحدث المؤلف في الفصل المعنون بـ "Soul and understatement" عن الروح السلافية. «إن أسوأ أنواع الأرواح هي الروح السلافية العظيمة. أولئك الذين يمتلكونها عادة ما يكونون مفكرين شديدي العمق. يحب هؤلاء أن يقولوا أشياء من قبيل: «هناك أوقات أكون فيها سعيداً جداً وهناك أوقات أكون فيها حزيناً جداً. كيف يمكنكم تفسير ذلك؟» أو: «أنا شديد الغموض. هناك أوقات أتمنى أن أكون فيها شخصاً آخر، لا أن أكون من أنا عليه». أو: «عندما أكون في غابة وحدي في منتصف الليل، وعندما أقفز من شجرة إلى أخرى، غالباً ما يراودني شعور بأن الحياة غريبة». من يجرؤ هنا على الاستهزاء بالروح السلافية العظيمة؟ المؤلف من أصل مجري بطبيعة الحال، واسمه جورج مايكس. فقط في أوروبا الوسطى تبدو الروح السلافية سخيفة».

ومع ذلك، فإن فكرة عالَم سلافي أصبحت شائعة في التأريخ العالمي[1]، فبدا تقسيم أوروبا بعد 1945، والذي وحّد هذا «العالَم» المزعوم (بما في ذلك أيضاً المجريين والرومانيين المساكين وإن لم تكن لغتهم سلافية، ولكن من يهتم بمثل هذه التفاصيل؟) حلاً شبه طبيعي.

7

هل يعني هذا أن عدم انتباه الغرب لاختفاء أوروبا الوسطى هو خطأ تتحمل وزره هذه الأخيرة؟

ليس بشكل كامل، ففي بداية هذا القرن، تحولت أوروبا الوسطى، رغم ضعفها السياسي، إلى مركز ثقافي كبير، بل ربما الأكبر في أوروبا. في هذا الصدد، فإن أهمية فيينا معروفة جيداً اليوم، ولكن لا يمكن أبداً التأكيد بما يكفي على أن تميّز العاصمة النمساوية لا يمكن تصوُّره من دون خلفية البلدان والمدن الأخرى التي ساهمت بإبداعاتها الخاصة في مجمل ثقافة أوروبا الوسطى. فإذا

---

(1) تصفحوا على سبيل المثال **التاريخ العالمي** لموسوعة لابلياد. ستجدون مصلح الكنيسة الكاثوليكية يان هوس في الفصل ذاته، ليس مع لوثر، بل مع إيفان الرهيب! وسوف تبحثون عبثاً عن نص أساسي يتحدث عن المجر. فبما أن تصنيفهم في «العالم السلافي» غير ممكن، فلا مكان للمجريين في خريطة أوروبا.

كانت مدرسة شونبرغ النمساوي قد أسست النظامَ الدوديكافوني، فإن المجري بيلا بارتوك، وهو في رأيي أحد اثنين أو أحد ثلاثة أعظم موسيقيين عرفهم القرن العشرين، توصّل إلى آخر إمكانية إبداع في الموسيقى التي تستند إلى مبدأ النغمات. وقد خلقت براغ، مع ما أبدعه كافكا وهاشيك، نظيراً روائياً عظيماً لما قدمه موزيل وبروخ في فيينا. وتصاعد النشاط الثقافي للبلدان غير الناطقة بالألمانية بعد عام 1918، عندما قدمت براغ للعالم مبادرة حلقة براغ اللغوية بفكرها البنيوي[1]. لقد

---

(1) في الواقع، وُلد الفكر البنيوي في أواخر العشرينيات في حلقة براغ اللغوية، التي تألفت من علماء تشيكيين وروس وألمان وبولنديين. خلال عقد الثلاثينيات، وفي هذه البيئة الكوزموبوليتانية، طور موكاروفسكي جمالياته البنيوية. كانت بنيوية براغ متجذرة عضوياً في الشكلانية التشيكية للقرن التاسع عشر (كانت النزعات الشكلانية في أوروبا الوسطى أقوى منها في أي مكان آخر بفضل - بنظري - المكانة المهيمنة التي احتلتها الموسيقى، ومعها، علم الموسيقى الذي يعتبر «شكلانياً» في جوهره). ومستلهماً من الدوافع الحديثة للشكلانية الروسية، تجاوز موكاروفسكي طابعها الأحادي الجانب بشكل راديكالي. كان البنيويون حلفاء لشعراء ورسامي حركة براغ الطليعية (مستبقين بالتالي التحالف الذي جرى في فرنسا بعد ثلاثين عاماً). وقد ساهموا بتأثيرهم هذا في حماية الفن الطليعي من التفسيرات الأيديولوجية الضيقة التي رافقت الفن الحديث في كل مكان. لم يتم نشر عمل موكاروفسكي، المعروف في جميع أنحاء العالم، في فرنسا.

صاغ الثالوث البولندي العظيم غومبروفيتش وشولز وفيتكيفيتش معالم الحداثة الأوروبية في الخمسينيات، ولا سيما ما سمي بمسرح العبث.

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل كان كل هذا الانفجار الإبداعي اللافت مجرد صدفة جغرافية؟ أم كان متجذراً في تقاليد راسخة، وفي ماضٍ معين؟ بمعنى آخر: هل يمكن أن نتحدث عن أوروبا الوسطى كمجموعة ثقافية حقيقية لها تاريخها الخاص؟ وإذا كانت هذه المجموعة موجودة بالفعل، فهل يمكن تحديدها جغرافياً؟ ما هي حدودها؟

ستكون محاولة ترسيم هذه الحدود بدقة عبثية، لأن أوروبا الوسطى ليست دولة، بل ثقافة أو قَدَراً. حدودها وهمية ولا بد من إعادة ترسيمها مع كل وضع تاريخي جديد.

على سبيل المثال، في منتصف القرن الرابع عشر، ضمت جامعة تشارلز في براغ مثقفين (أساتذة وطلاب) تشيكيين ونمساويين وبافاريين وساكسونيين وبولنديين وليتوانيين ومجريين ورومانيين، مع بذرة فكرة مجتمع متعدد الجنسيات، حيث لكل فرد الحق في استخدام لغته الخاصة: وبالفعل، تحت التأثير غير المباشر لهذه الجامعة

(كان الإصلاحي يان هوس رئيسها) ولدت الترجمات الأولى للكتاب المقدس إلى المجرية والرومانية.

وتبعت ذلك مواقف الأخرى: الثورة الهوسيتية؛ الإشعاع الدولي للنهضة المجرية في حقبة ماتياس كورفينوس؛ تشكيل إمبراطورية هابسبورغ كاتحاد لثلاث دول مستقلة: بوهيميا والمجر والنمسا؛ الحروب ضد الأتراك؛ الإصلاح المضاد خلال القرن السابع عشر. وفي ذلك الوقت، كانت الخصوصية الثقافية لأوروبا الوسطى بارزة بفضل الازدهار الاستثنائي للفن الباروكي، الذي وحّد هذه المنطقة الشاسعة، من سالزبورغ إلى فيلنيوس. وهكذا، بالنظر إلى الخريطة الأوروبية، أصبحت أوروبا الوسطى الباروكية (التي تميزت بهيمنة اللاعقلانية وبالدور المهيمن للفنون التشكيلية والموسيقى بشكل خاص) القطب المقابل لفرنسا الكلاسيكية (التي تميزت بهيمنة العقلانية وبالدور المهيمن للأدب والفلسفة). وفي هذا العصر الباروكي كانت جذور الازدهار الاستثنائي لموسيقى أوروبا الوسطى، من هايدن إلى شونبرغ، ومن ليست إلى بارتوك، التي مثلت في حد ذاتها تطور كل الموسيقى الأوروبية.

في القرن التاسع عشر، حرضت النضالات القومية

(للبولنديين والمجريين والتشيك والكروات والسلوفينيين والرومانيين واليهود) الأمم ضد بعضها، ورغم كونها غير متضامنة، ومعزولة، ومنغلقة على نفسها، إلا أنها عاشت التجربة الوجودية المشتركة نفسها: أمة تختار بين وجودها ولاوجودها؛ أو بعبارة أخرى، بين حياتها الوطنية الأصيلة والاندماج في أمة أكبر.

فحتى النمساويون، بوصفهم الأمة المهيمنة في الإمبراطورية، عجزوا عن الإفلات من ضرورة هذا الخيار، إذ كان عليهم الاختيار بين هويتهم النمساوية أو الاندماج في الكيان الألماني الأكبر. كما لم يستطع اليهود أيضاً تجنُّب هذا السؤال. فمن خلال رفضهم الاندماج، لم تختر الصهيونية، التي نشأت بالمناسبة في أوروبا الوسطى، سوى مسار كل أمم أوروبا الوسطى.

شهد القرن العشرين مواقف أخرى: انهيار الإمبراطورية، والضم الروسي، وفترة الثورات الطويلة في أوروبا الوسطى، والتي لم تكن سوى رهانٍ كبير على الحل المجهول.

وبالتالي، فإن ما يعرِّف ويحدِّد مجموعة أوروبا الوسطى لا يمكن أن يكون الحدود السياسية (فهي زائفة، فرضتها دوماً سلسلة من الغزوات والفتوحات

والاحتلالات) بل **المواقف المشتركة الكبرى** التي تجمع شعوباً بشكل مختلف دائماً داخل حدود وهمية تتغير دائماً، حيث تتشارك الذاكرة والتجربة والتقاليد نفسها.

8

كان والدا سيغموند فرويد من أصل بولندي، ولكن سيغموند الصغير قضى طفولته في مورافيا، مسقط رأسي، كما فعل إدموند هوسرل وغوستاف مالر؛ وابن فيينا الروائي جوزيف روث له جذوره في بولندا؛ وولد الشاعر التشيكي العظيم يوليوس زير في براغ لعائلة ناطقة بالألمانية وكانت اللغة التشيكية اللغة التي اختارها. من ناحية أخرى، كانت اللغة الأم لهرمان كافكا هي التشيكية، بينما اعتمد ابنه فرانز اللغة الألمانية بشكل كامل. والكاتب تيبور ديري، الشخصية المحورية في الثورة المجرية عام 1956، كان من عائلة ألمانية-مجرية، وعزيزي الروائي المتميز دانيلو كيس، هو مجري-يوغسلافي. يا له من تشابك في المصائر الوطنية بين الشخصيات الوازنة والأكثر حضوراً!

وجميع مَن ذكرتهم يهود. ففي الواقع، لم يتأثر أي جزء من العالم بالعبقرية اليهودية بعمق كما تأثرت به أوروبا

الوسطى. غرباء في كل مكان وفي وطنهم في كل مكان، اعتاد اليهود على الارتقاء فوق الخلافات الوطنية، وكانوا في القرن العشرين العنصر الكوزموبوليتاني الرئيسي والموحِّد لأوروبا الوسطى، ودعامتها الفكرية، وتكاثف روحها، ومُنشئي وحدتها الروحية. لهذا السبب أحبهم وأتمسك بتراثهم بشغف وحنين كما لو كان تراثي الشخصي.

وهناك أمر آخر يجعل الأمة اليهودية عزيزة عليّ، إذ يبدو لي أن مصير أوروبا الوسطى يتركّز وينعكس ويجد صورته الرمزية في مصيرها. ما هي أوروبا الوسطى؟ مساحة متقلبة من الأمم الصغيرة بين روسيا وألمانيا. وأسطر هنا على كلمتَي: **أمة صغيرة**. وهل اليهود سوى أمة صغيرة، الأمة الصغيرة بامتياز؟ الأمة الوحيدة من بين جميع الأمم الصغيرة في كل العصور التي نجت من سطوة الإمبراطوريات ومسيرة التاريخ المدمرة.

لكن ما المقصود بالأمة الصغيرة؟ أقترح عليكم تعريفي: الأمة الصغيرة هي الأمة التي يمكن لوجودها أن يكون موضع شك في أي وقت، والتي يمكن أن تختفي، وهي تعلم ذلك. إن الفرنسي والروسي والإنجليزي ليسوا معتادين على التساؤل حول بقاء أمتهم، فلا تتحدث

نشائدهم سوى عن العظمة والخلود، في حين يبدأ النشيد البولندي بهذا البيت: «بولندا لم تهلك بعد...».

تتمتع أوروبا الوسطى، باعتبارها مرتعاً لأمم صغيرة، بنظرتها الخاصة للعالم، والتي تستند إلى انعدام عميق للثقة بالتاريخ. التاريخ، إله هيجل وماركس، هذا التجسيد للمنطق الذي يحكمنا ويحكم علينا، هو تاريخ المنتصرين. لكن شعوب أوروبا الوسطى ليست منتصرة. إنها لا تنفصل عن التاريخ الأوروبي، ولا يمكنها الوجود من دونه، لكنها تمثل الجانب الآخر من هذا التاريخ، بضحاياه وغرباه. ومن هذه التجربة التاريخية المحبطة نبعت أصالة ثقافتها، وحكمتها، و«روحها غير الجدية» التي تسخر من العظمة والمجد. «دعونا لا ننسى أنه فقط من خلال معارضة التاريخ في حد ذاته يمكننا معارضة تاريخ اليوم». كم أرغب في نقش جملة ويتولد غومبروفيتش هذه على بوابة الدخول إلى أوروبا الوسطى[1].

---

(1) فيما يتعلق بـ«رؤية أوروبا الوسطى للعالم»، لقد قرأت كتابين أقدرهما حقاً: أحدهما أدبي أكثر، عنوانه: **أوروبا الوسطى: الحكاية والتاريخ** وهو لكاتب مجهول (يحمل توقيع: جوزيف ك.) ومتوفر في براغ على شكل نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة؛ والآخر فلسفي أكثر، ويحمل عنوان: *Il mondo della vita : un problema politico*، والمؤلف فيلسوف من جنوة، فاتسلاف بيلوهرادسكي. =

ولهذا السبب، في هذه المنطقة من الأمم الصغيرة التي «لم تهلك بعد»، كان ضعف أوروبا، أوروبا بأكملها، واضحاً بشكل أكثر جلاءً وفي وقت أبكر من أي مكان آخر. ففي عالمنا الحديث حيث تميل القوة إلى أن تتركز أكثر فأكثر في أيدي عدد قليل من الدول الكبرى، فإن جميع الأمم الأوروبية معرضة لخطر التحول قريباً إلى أمم صغيرة والخضوع لمصيرها. بهذا المعنى، يبدو مصير أوروبا الوسطى مثل استباق للمصير الأوروبي بشكل عام، وبذلك تكتسب ثقافتها أهمية كبرى على الفور.

يكفينا في هذا الصدد أن نقرأ أعظم روايات أوروبا الوسطى[1]: في رواية **السائرون نياماً** لبروخ، يظهر التاريخ كعملية تدهور للقيم؛ كما تصوّر رواية **رجل بلا صفات** لموزيل مجتمعاً مفعماً بالبهجة، لا يعرف أنه سيندثر غداً؛

= ويستحق هذا الكتاب، الذي أصدرته بالفرنسية دار فيردييه، اهتماماً كبيراً. ومنذ عام، هناك تسليط للضوء على موضوع أوروبا الوسطى في صفحات مجلة مهمة تصدرها جامعة ميشيغان: *Cross Currents, a Yearbook of Central European Culture*.

(1) باسكال لينيه هو الكاتب الفرنسي الذي يحتفي دائماً برواية أوروبا الوسطى (بالنسبة إليه لا يقتصر الأمر على روائيي فيينا، بل يشمل أيضاً الروايات التشيكية والبولندية). إنه يشير إلى نقاط مهمة حول هذا الموضوع في كتاب يضم مجموعة من مقابلاته، عنوانه *Si j'ose dire* (صدر عن دار ميركور دو فرانس).

وفي رواية **الجندي الطيب شفيك** لهاشيك، فإن محاكاة البلاهة هي آخر إمكانية للحفاظ على حرية المرء؛ وتحدثنا رؤى كافكا الإبداعية عن عالَم بلا ذاكرة، عن عالم ما بعد الأزمنة التاريخية. فيمكن فهم كل الإبداعات العظيمة لأوروبا الوسطى، طوال هذا القرن ووصولاً إلى يومنا هذا، على أنها تأمل طويل في النهاية المحتملة للإنسانية الأوروبية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

9

واليوم، تجد أوروبا الوسطى نفسها مستعبدة من قِبل روسيا، باستثناء النمسا الصغيرة التي حافظت - بضربة حظ أكثر من كونها ضرورة - على استقلالها، لكن بسبب انتزاعها عن أجواء أوروبا الوسطى، فقدت القسم الأكبر من خصوصيتها وكل أهميتها. كان اختفاء المركز الثقافي لأوروبا الوسطى بالتأكيد أحد أكبر أحداث القرن بالنسبة للحضارة الغربية برمتها. لذا أكرر سؤالي: كيف يعقل أن يمر هذا الاختفاء دون أن يلحظه أحد أو حتى يقوم بتسميته؟

جوابي بسيط: لم تنتبه أوروبا لاختفاء مركزها الثقافي

العظيم، لأن أوروبا لم تعد تشعر بوحدتها بوصفها وحدة ثقافية.

على أي أساس تقوم وحدة أوروبا إذاً؟

في العصور الوسطى، كانت هذه الوحدة تقوم على أساس الدين المشترك.

أما في العصور الحديثة، ومع تحول إله العصور الوسطى إلى **إله خفي** (Deus absconditus)، أفسح الدين المجال للثقافة التي أصبحت تحقيقاً للقيم العليا التي من خلالها فهمت الإنسانية الأوروبية نفسها، وحدّدتها، وعرّفت عنها.

ومع ذلك، يبدو لي أن هناك تغييراً آخر يحدث في قرننا هذا، لا يقل أهمية عن ذاك الذي فصل بين العصور الوسطى والعصور الحديثة. فمثلما أفسح الإله المجال للثقافة في الماضي، تتخلى الثقافة بدورها عن موقعها اليوم.

تتخلى عن موقعها لماذا ولمن؟ ما هو المجال الذي سيتم فيه تحقيق القيم العليا التي يمكن أن توحد أوروبا؟ الإنجازات التقنية؟ السوق؟ وسائل الإعلام؟ (هل يحل الصحافي العظيم محل الشاعر العظيم؟) أم السياسة؟ ولكن أية سياسة؟ سياسة اليمين أم سياسة اليسار؟ أما زالت هناك، فوق هذه المانوية التي تجمع بين الغباء وصعوبة

التغلب عليها، مثالية مشتركة محسوسة؟ هل هو مبدأ التسامح واحترام معتقدات وأفكار الآخرين؟ لكن، إذا لم يعد هذا التسامح قادراً على حماية أي إبداع غني وأي فكر قوي، ألن يصبح فارغاً وعديم الفائدة؟ أم يمكننا فهم انكفاء الثقافة كشكل من أشكال الخلاص، نستسلم له ونحن في حالة من النشوة؟ أم سيعود الإله الخفي ليحتل المكان الذي تم إخلاؤه وليصبح مرئياً؟ لا أدري، لا علم لي بشيء. أعتقد فقط أن الثقافة قد تخلت عن مكانها.

كان هرمان بروخ مهووساً بهذه الفكرة منذ الثلاثينيات، فهو يقول على سبيل المثال: «لقد أصبح الفن التشكيلي شأناً مقصوراً على فئة معينة، وصار ملكاً لعالَم المتاحف. لم يعد هناك أي اهتمام به أو بمشاكله، بل إنه يكاد يتحول إلى بقايا فترة ولّت».

كانت هذه الكلمات مفاجئة وقتئذ، أما اليوم فلا. أنجزتُ خلال السنوات الماضية استطلاعاً صغيراً للرأي، حيث سألت ببراءة عدداً من الأشخاص الذين قابلتهم عن رسامهم المعاصر المفضل. لاحظت أنه لا أحد منهم كان له رسام معاصر مفضل، بل إن معظمهم ما كانوا يعرفون رساماً معاصراً واحداً.

ما كان بالإمكان تصور مثل هذا الوضع قبل ثلاثين

عاماً، عندما كان جيل ماتيس وبيكاسو على قيد الحياة. الآن فَقَدَ الفن التشكيلي وزنه، وتحول إلى نشاط هامشي. هل لأنه لم يعد جيداً؟ أم لأننا فقدنا تذوقنا وإحساسنا تجاهه؟ الحقيقة الواضحة هنا أن الفن الذي أنشأ أسلوب العصور على مر الزمن ورافق أوروبا لقرون، يتخلى عنا الآن، أو ربما نحن من نتخل عنه.

وماذا عن الشِعر والموسيقى والعمارة والفلسفة؟ لقد فقدتْ بدورها القدرة على تكريس الوحدة الأوروبية وترسيخ أسسها. هذا تغيير بنفس أهمية إنهاء الاستعمار في أفريقيا بالنسبة إلى الإنسانية الأوروبية.

10

أمضى فرانز فرفل الثلث الأول من حياته في براغ، والثاني في فيينا، والثالث مهاجراً، إلى فرنسا أولاً ثم إلى أميركا؛ إنها سيرة ذاتية وسط أوروبية بامتياز. وعام 1937، كان مدعواً مع زوجته الشهيرة ألما، أرملة ماهلر، في باريس، من قِبل لجنة التعاون الفكري لعصبة الأمم لحضور ندوة تناولت موضوع «مستقبل الأدب». في محاضرته، لم يعارض فرفل الهتلريةَ فحسب، بل عارض

الخطر الاستبدادي بشكل عام، والغباء الأيديولوجي والصحفي لهذا العصر، الذي كان سيصيب الثقافة في مقتل. أنهى محاضرته باقتراحٍ كان يعتقد أنه سيبطئ المسار الجهنمي للأحداث: تأسيس أكاديمية عالمية للشعراء والمفكرين (Weltakademie der Dichter und Denker). لم يكن ينبغي، بأي حال من الأحوال، أن يكون أعضاؤها مفوضين من قِبل الدول، بل كان ينبغي أن يتم اختيار الأعضاء على أساس قيمة أعمالهم فقط. وكان يجب أن يكون عدد الأعضاء، وهم من بين أعظم الكُتّاب في العالم، ما بين أربعة وعشرين وأربعين، وأن تكون مهمة هذه الأكاديمية، البعيدة عن السياسة والبروباغندا، هي «مواجهة خطر تسييس العالَم وهمجيته».

لم يتم رفض هذا الاقتراح فقط، بل إنه تحول إلى موضوع للاستهزاء. كان هذا الاقتراح ساذجاً بالطبع، ساذجاً إلى حد رهيب. ففي عالَم مسيس تماماً، حيث كان الفنانون والمفكرون جميعاً «ملتزمين» بلا هوادة، كيف كان إنشاء هذه الأكاديمية المستقلة ممكناً؟ ستبدو فقط هزلية، مثل تجمع لأصحاب النفوس الطيبة.

ومع ذلك، فإن هذا الاقتراح الساذج يبدو لي مؤثراً، لأنه يكشف الحاجة الماسة لإيجاد سلطة أخلاقية في عالَم

خلا من القيم. لم تكن هذه سوى رغبة قلقة في إسماع صوت الثقافة السائر نحو الخفوت، صوت Dichter und Denker[1] (الشعراء والمفكرين).

تختلط هذه القصة في ذهني مع ذكرى صباحٍ صادرتْ فيه الشرطة ألف صفحة من مخطوطة فلسفية لأحد أصدقائي، وهو فيلسوف تشيكي شهير، بعد تفتيش شقته. في ذلك اليوم بالذات، كنا نسير في شوارع براغ. نزلنا من هرادشين حيث كان يقطن، باتجاه شبه جزيرة كامبا، ثم عبرنا جسر مانيس. كان يتظاهر بالمزاح: كيف سيتمكن رجال الشرطة من فك شفرات لغته الفلسفية المحكمة؟ لكن لا وجود لمزاح قادر على تجاوز الألم، وتعويض خسارة

(1) لم تكن محاضرة فرفل ساذجة على الإطلاق ولم يتجاوزها الزمن. إنها تذكرني بمحاضرة أخرى، تلك التي قرأها روبرت موزيل عام 1935 في مؤتمر الدفاع عن الثقافة في باريس. فهو مثل فرفل، رأى أن الخطر لا يتعلق بالفاشية فقط، بل بالشيوعية أيضاً. فلا يعني الدفاع عن الثقافة بالنسبة له انخراطها في نضال سياسي (كما فهما الجميع وقتئذ)، بل على العكس من ذلك، في حماية الثقافة من غباء التسييس. كلاهما يدرك أن في عالَم التكنولوجيا والإعلام الحديث، فإن الآمال المعقودة على الثقافة ليست عالية. استُقبلت آراء موزيل وفرفل استقبالاً سيئاً للغاية في باريس. لكن في جميع المناقشات السياسية والثقافية التي أسمعها من حولي، أكاد لا أجد شيئاً لأضيفه إلى ما قالاه، وأشعر، في مثل هذه الأوقات، أنني قريب جداً منهما، وأشعر أنني أنتمي إلى أوروبا الوسطى بارتباط لا فكاك منه.

عشر سنوات من العمل الذي مثلته هذه المخطوطة، والتي لم تكن لدى الفيلسوف نسخة أخرى منها.

ناقشنا إمكانية بعث رسالة مفتوحة إلى الخارج لتحويل هذه المصادرة إلى فضيحة دولية. كان من الواضح لنا أنه لا يتعين علينا مخاطبة مؤسسة أو رجل دولة، بل شخصية لها مكانتها التي تعلو مكانة السياسة، وتمثل قيمة لا نقاش حولها، ومعترفاً بها في عموم أوروبا. ما يعني بطبيعة الحال شخصية ثقافية، ولكن، أين هي؟

وفجأة أدركنا أن هذه الشخصية غير موجودة. نعم، كان هناك رسامون وكُتّاب مسرحيون وموسيقيون عظماء، لكنهم ما عادوا يشغلون المكانة المتميزة للسلطة الأخلاقية في المجتمع، التي قد تخولهم بأن يكونوا ممثلين روحيين تعترف بهم أوروبا، إذ لم تعد الثقافة موجودة بوصفها مجالاً تتحقق فيه القيم العليا.

سرنا نحو ساحة البلدة القديمة التي كنت أعيش في جوارها عندئذ، وراودنا شعور هائل بالوحدة، والفراغ، فراغ الفضاء الأوروبي الذي كانت الثقافة تنسحب منه ببطء[1].

---

(1) أخيراً، وبعد تردد طويل، قام بإرسال هذه الرسالة إلى جان بول سارتر. نعم، كان آخر شخصية ثقافية عالمية وعظيمة، ومع ذلك =

11

إن آخر ذكرى للغرب التي تحتفظ بها دول أوروبا الوسطى من وحي تجربتها الخاصة هي تلك التي تعود إلى الفترة ما بين 1918 و1938. وهي متمسكة بها بما يفوق أي حقبة أخرى في تاريخها (وهو ما تثبته استطلاعات الرأي السرية). لذلك فإن صورتها عن الغرب هي صورة الغرب في الماضي، الغرب الذي لم تتخل فيه الثقافة عن مكانتها بعد.

أود في هذا السياق أن أسلط الضوء على ظرف له دلالته: لم تكن ثورات أوروبا الوسطى مدعومة من الصحف أو الراديو أو التلفزيون، أي وسائل الإعلام. فقد جرى إعدادها والتخطيط لها وتنفيذها بواسطة الروايات، والشعر، والمسرح، والسينما، والتأريخ، والمجلّات

= فسارتر بالضبط، في نظري، وعبر مفهومه عن «الالتزام»، هو مَن وضع الأساس النظري لتنازل الثقافة باعتبارها قوة مستقلة ومحددة وغير قابلة للاختزال. على أية حال، لقد رد على رسالة صديقي على الفور بمقال نُشر في صحيفة **لوموند**. ولولا هذا التدخل، ما كانت الشرطة في رأيي لتُعيد المخطوطة أخيراً (بعد حوالي عام) إلى الفيلسوف. وفي يوم جنازة سارتر، عادت إليّ ذكرى صديقي في براغ: الآن، لن تجد رسالته أي متلقٍ.

الأدبية، والعروض الكوميدية الشعبية، والنقاشات الفلسفية، أي بواسطة الثقافة، إذ لم تلعب وسائل الإعلام، والتي تتماهى بالنسبة إلى فرنسي أو أمريكي مع صورة الغرب المعاصر نفسه، أي دور في هذه الثورات (خاصة وأنها كانت خاضعة للدولة بالكامل)[1].

لهذا السبب، عندما احتل الروس تشيكوسلوفاكيا، كانت النتيجة الأولى هي التدمير الكامل للثقافة التشيكية، وكان معنى هذا التدمير ثلاثياً. أولاً، لقد جرى تدمير مركز المعارضة. ثانياً، جرى تقويض هوية الأمة بحيث يمكن استيعابها بسهولة أكبر من قِبل الحضارة الروسية؛ ثالثاً، جرى وضع نهاية عنيفة لما يُعرف بـ«الأزمنة الحديثة»، أي تلك الحقبة التي مثّلت فيها الثقافة تحقيقاً للقيم العليا.

وتبدو لي هذه النتيجة الثالثة الأكثر أهمية، إذ تُمثِّل حضارة الشمولية الروسية نفياً جذرياً للغرب كما وُلد في فجر الأزمنة الحديثة والمستند إلى الأنا التي تفكر وتشكك، والذي يتميز بالإبداع الثقافي بوصفه تعبيراً عن هذه الأنا المتفردة والفريدة من نوعها. وقد ألقى الغزو

(1) لكن وجب هنا التذكير باستثناء مشهور: خلال الأيام الأولى للاحتلال الروسي لتشيكوسلوفاكيا، لعبت الإذاعة والتلفزيون، عبر برامجها الإذاعية السرية، دوراً رائعاً للغاية. ولكن حتى حينها، كان صوت ممثلي الثقافة مَن يهيمن عليها.

الروسي بتشيكوسلوفاكيا في عصر «ما بعد الثقافة»، وبالتالي جعلها منزوعة السلاح وعارية في وجه الجيش الروسي وتلفزيون الدولة الحاضر في كل مكان.

وأنا لا أزال متأثراً بهذا الحدث المأسوي الثلاثي الذي مثّله غزو براغ، جئتُ إلى فرنسا وحاولت أن أشرح لأصدقائي الفرنسيين تفاصيل المذبحة التي تعرضتْ لها الثقافة بعد الغزو: «تخيلوا! لقد أوقفوا كل المجلّات الأدبية والثقافية! كلها بدون استثناء! لم يحدث هذا في تاريخ التشيك، ولا حتى في ظل الاحتلال النازي خلال الحرب!».

لكن نظر إليّ أصدقائي بعطف محرَج، فهمت معناه لاحقاً. ففي الواقع، عندما أوقفت كل المجلّات في تشيكوسلوفاكيا، كانت الأمة بأكملها على علم بذلك، وقد راودها قلق بالغ حيال الأهمية الخطيرة لهذا الحدث[1].

---

(1) أصدر اتحاد الكُتّاب التشيكيين أسبوعية *Literarni noviny* (**الصحيفة الأدبية**) التي وُزعت منها ثلاثمائة ألف نسخة (في بلد يبلغ عدد سكانه عشرة ملايين نسمة). وقد أَعَدَّت هذه الأسبوعية لربيع براغ لسنوات ثم أصبحت بعد ذلك منصة ناطقة باسمه. لم تكن تشبه في شكلها الأسبوعيات الأخرى مثل *Time* التي كانت كلها تشبه بعضها بعضاً والتي انتشرت في أمريكا وأوروبا على حد سواء. كانت أسبوعية أدبية بحق: ضمت مقالات طويلة عن الفن، وتحليلات =

أما في فرنسا أو إنجلترا، فكانت المجلّات تتوقف عن الصدور شيئاً فشيئاً ولم يلاحظ ذلك أحد، ولا حتى ناشروها أنفسهم. في باريس مثلاً، وحتى في الأوساط المثقفة، يكون موضوع نقاشات لقاءات العشاء هو البرامج التلفزية، وليس المجلّات. وهذا لأن الثقافة كانت قد تخلت عن مكانتها أصلاً. فبدا موتها، الذي عشناه بوصفه كارثة وصدمة ومأساة في براغ، تافهاً وبلا معنى، وبالكاد يرى، بل وأقرب إلى «اللاحدث» في باريس.

12

بعد تدمير الإمبراطورية، فقدت أوروبا الوسطى أسوارها. وبعد أوشفيتز، التي جرفت الأمة اليهودية، ألم تفقد هذه البقعة روحها؟ الآن، وبعد انتزاعها من أوروبا عام 1945، هل ما زالت موجودة؟

= للكتب، مع مقالات مكرسة للتاريخ وعلم الاجتماع والسياسة، لم يكتبها صحافيون، بل كُتّاب ومؤرخون وفلاسفة. أنا لا أعرف أي أسبوعية أوروبية لعبت دوراً تاريخياً مهماً مماثلاً في قرننا هذا. وقد طُبعت المجلّات الأدبية التشيكية الشهرية بأعداد تتراوح بين عشرة آلاف وأربعين ألف نسخة، وكان مستواها مميزاً، رغم الرقابة. وفي بولونيا، كانت للمجلّات أهمية مشابهة: فهناك حالياً مئات (!) المجلات التي تصدر بطريقة سرية!

نعم، يدل إنشاؤها وثوراتها على أنها «لم تهلك بعد». ولكن، إذا كانت الحياة تعني الوجود في عيون مَن نحبهم، فإن أوروبا الوسطى لم تعد موجودة. بتعبير أدق: في عيون أوروبا المحبوبة، هي مجرد جزء من الإمبراطورية السوفييتية، لا أكثر ولا أقل.

ولماذا يفاجئنا ذلك؟ فبالنظر إلى نظامها السياسي، تُعتبر أوروبا الوسطى منتمية إلى الشرق. أما بالنظر إلى تاريخها الثقافي، فهي منتمية إلى الغرب. ولكن بما أن أوروبا سائرة نحو فقدان الإحساس بهويتها الثقافية الخاصة، فإنها لا ترى في أوروبا الوسطى سوى نظامها السياسي، أو بعبارة أخرى: إنها لا ترى في أوروبا الوسطى سوى أوروبا الشرقية.

على هذا الأساس، يجب على أوروبا الوسطى أن تعارض ليس فقط ثقل جارتها الكبرى، بل أيضاً القوة اللامادية للزمن الذي يترك حقبة الثقافة وراء ظهره، وبشكل غير قابل للإصلاح. هذا هو السبب في امتلاك ثورات أوروبا الوسطى حساً محافظاً، بل يمكنني القول إنه قد عفا عليه الزمن: إنها تسعى جاهدة لاستعادة الماضي، زمن الثقافة الذي مضى، زمن الأزمنة الحديثة الذي مضى، ففقط في تلك الحقبة، وفقط في عالَم احتفظ ببعدٍ ثقافي،

يمكن لأوروبا الوسطى أن تدافع عن هويتها، يمكن أن يُنظَر إليها كما هي حقاً.

وبالتالي، فإن مأساة أوروبا الوسطى الحقيقية ليست روسيا، بل أوروبا. أوروبا التي مثّلت، بالنسبة لمدير وكالة الأنباء المجرية، قيمة كان مستعداً للموت في سبيلها، ومات فعلاً. فبوجوده خلف الستار الحديدي، لم يكن يعلم أن الزمن قد تغير، وأن في أوروبا، لم يعد يُنظر إلى أوروبا باعتبارها قيمة. لم يكن يعلم أن الجملة التي أرسلها عبر التلكس لتتجاوز حدود بلده المسطح بدت قديمة للغاية، وما كان أحد ليفهمها أبداً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

المحتويات

تقديم بقلم جاك روبنيك 7
الأدب والأمم الصغيرة
خطاب ألقاه ميلان كونديرا ضمن فعاليات
مؤتمر الكُتّاب التشيكوسلوفاكيين 15

تقديم بقلم بيير نورا 33
الغرب المختطف
أو مأساة أوروبا الوسطى 37

ميلان كونديرا

الغرب المختطف

«شاهدتُ مؤخراً فيلماً يحكي قصة آنستين حقيرتين بشكل سافر، آنستين فخورتين للغاية بضيق أفقهما اللطيف، وتدمّران بفرح ومرح كل ما يتجاوز آفاقهما. تبدّت لي في هذا الفيلم رمزيةٌ تكشف تخريباً واسع النطاق ذا راهنية ملتهبة. من هو المُخرِّب؟ المُخرِّب هو ضيقُ الأفق الفخور المكتفي بذاته والمستعد في أي وقت للمطالبة بحقوقه. يؤمن ضيقُ الأفق الفخور هذا بأن القدرة على تكييف العالَم مع صورته هي جزء من حقوقه غير القابلة للنقاش، وبما أن العالَم يتألف أساساً من كل ما يستعصي عليه فهمه، فهو يُكيِّف العالَم مع صورته بتدميره... إن مَن يعيشون حاضرهم بمعزل عن سياقه، ويتجاهلون الاستمرارية التاريخية ويفتقرون إلى الثقافة، قادرون على تحويل وطنهم إلى صحراء بلا تاريخ، بلا ذاكرة، بلا صدى، وخالية من كل مقومات الجمال.

في رسالة إلى هيلفيتيوس، كتب فولتير هذه الجملة الرائعة: **لا أتفق مع ما تقوله، لكنني سأقاتل حتى الموت ليكون لك الحق في أن تقول ذلك.** فإن أي تدخُّل في حرية الفكر والتعبير ـ كيفما كان أسلوب هذه الرقابة أو اسمها ـ هو يمثِّل في القرن العشرين فضيحة، ويشكِّل عبئاً ثقيلاً على أدبنا الذي يعيش نشاطاً ملحوظاً».

مكتبة
t.me/soramnqraa

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
markaz.casablanca@gmail.com

لوحة الغلاف للفنان آرثر دوف